

الكائن الأعلى
مطلق الكمال والوجود
في الفلسفة... والعلوم... والدين

عبد الله أبو رواش

دار النشر
الطبعة الأولى
الطبعة الثانية
الطبعة الثالثة

الكائن الأعلى
مطلق الكمال والوجود
في الفلسفة... والعلم... والدين

عبد الله أبو رواش

دار القرآن للطباعة والنشر
٤٤ معلع الدريغ
٢٠١٢ ١٤٣٤ هـ

الحمد لله

إلى الله الذي منه وإليه كل شيء أرفع ما جاء في هذا
الكتاب مع اكف الضراعة أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه
أرجو به رضاه وعفوه وتوفيقه وأن يهدي به من يقرأه
إلى صراطه المستقيم .

العبد الخاضع لعزة الله وجلاله
عبد الله أبو رواش يوسف

١٧ رمضان سنة ١٤٠١

الموافق ١٨ يوليو سنة ١٩٨١

تصدير الكتاب ...

بقلم الأستاذ الدكتور / عبد الله حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بجلاله ويحيط بكامله .. والصلاة
والسلام على محمد وآله خير من عرف مقام ربه الأعلى فكان من
أشد الناس لله خشية وتقوى مع ما كان له من القدر الأسمى
والجزاء الأوفى ..

وبعد ...

فإن الإنسان بفطرته يهتدي إلى ربه وخالقه . وبفكره
وعقله يدرك شواهد قدرته وآثار نعمته .. وبقلبه يستشعر
أسرار هدايته وبدائع رحمته .. لكن المكاف عليه أن يعرف
الواجب والجائز والمعني في حق الله سبحانه وتعالى ولو
بدليل جلي يخرج به من التقليد إلى التحقيق وليكون إيمانه

إيماناً راسخاً قوياً قوامه المعرفة واليقين .. والله سبحانه
وتعالى يجب أن يكون متصفاً بكل كمال .. منزهاً عن كل
نقص .. لكن بعض الكمالات التي يجب أن يصف بها الله قد
قامت الأدلة العقلية أو النقلية عليه تفصيلاً وبعضها قد قامت
الأدلة العقلية أو النقلية عليه إجمالاً .. والموضوع دقيق بلا
جدال . والنضيه شائكة لاشك في ذلك . وإذا كان للمؤمنين
فيها حظ الطمأنينة واليقين فإن للملحدين خذلانهم وشكوكهم
وأباطيلهم وهم في غيهم يعمهون .. وما على المسلم الغيور إلا
أن يستل سيف الحق ليدهمض به الباطل ويلوذ بالحجة والبيان
ليدفع زيف الآفك والبهتان .. ويستمد من نور الله قيصه يبدد
بها ظلمات الشك ويعلى منار الحقيقة والإيمان .

وما أن تصفحت أصول كتاب « الكون والكينونة
ومطلق الكمال والوجود » .. حتى أحسست أن أدينا الشاعر
الاستاذ عبد الله أبو رواش الذي قدمت له من قبل ديوان
« اللحن الأزرق » قد امتشق حسام الحقيقة .. ولبس دروع

العكر وانضمري تحتلوا الفاسفة وقد خلع هه أردية التواني
ولغة العواطف والمشاعر ليكون جندياً في معركة التوحيد...
بمصدى لثيف المفرضين وحجج المبطلين... ويدحض بالدليل
والبرهان كل ذيق وشرو وبهتان .

ولقد حشد المؤلف لبعثه من المصادر والمراجع ما جعلني
أشعر أنه يعد العدة لرسالة جامعية للحصول على إجازة علمية
مقدمة في قضية الألوهية . . ذلك أن موضوع الكتاب قد
اشتمل على الكثير مما تفتقت عنه قرائح الفلاسفة منذ أقدم
العصور . . وما أسفرت عنه بحوث العلماء من نتائج ما انتهت
إليه آراء المشتغلين بعلوم الدين من فكر مستفيض وتفسير
عميق لما جاء به وحى السماء في هذا الموضوع . . وكان لازماً
على الباحث أن يستوعب ويستقصى ويمحص ويدقق ويحلل
ويحل ويوازن ويرجح ويجهد ويستخلص . . وذلك جهاد
لا يقدر على تحمله إلا صبور متمرس وجهيد ثقة . .

إني إذ أسعد بتقديم هذا الكتاب إلى قراء العربية أود

— ج —

ان تتاح الفرصة لترجمته الى لغات شتى ليستمع به المؤمنون
بانه في كل مكان . وما بقى إلا أن أقدم عظيم ثنائى وتقديرى
للاستاذ عبد الله أبو رواش على اختياره هذا الموضوع الشائك
وما بذله من جهد فى تقديمه داعياً الله سبحانه أن يحزل له من
الثواب ما يكافى جهده المتخلصين وأن يمد فى عمره ليثرى المكتبة
العربية بالفيض الفزير من مؤلفاته القيمة التى لا يتصدى لمثلها
إلا أولو العزم من شيوخ الكتاب .

دكتور / عبد الله حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .
له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء
قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء
عليم . هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم
استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها
وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم
والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله
ترجع الأمور . (١ — ٦ / سورة الحديد) وصلاة وسلاماً
على من أوفى معجزة المعجزات محمد النبي الأمي المبعوث
رحمة للعالمين .
وبعد

فإنه لا تأويل ولا تعقيب على ما ذكرنا من الآيات واستقراء
لكتاب الوجسود المنشور الصفحات .. المتجدد الآيات
الواضح الدلالات .. واستلها ما من حصاة الفكر الإنساني
علما وحكمة .. تاريخا وأدبا .. كتبت هذه الخواطر والأفكار
واقدمها في تواضع جم إلى محبي الكلمة الناجية في حقل
البحث عن الحقيقة آملا أن تروق لهم ..
والله الموفق للصواب

عبد الله أبورواش

رمضان سنة ١٣٩٩ هـ

أغسطس سنة ١٩٧٩ م

كلية لا بد منها

إن الصراع من أجل الحياة هو سر الحياة الذي لن ينتهى
حتى تنتهى الحياة ذاتها وتزول السموات والأرض .
وحول هذه الحقيقة اختلف الناس .. فمن قائل إن الحياة
تجدد نفسها وإن الأرض والسموات باقية ولن تزول ..
ومن قائل إن السموات والأرض موقوتة بزمن محدد
خالقها . وأصحاب الرأي الأول يرون أن الكون طبيعى
وأن المادة لا تفنى ولم تخلق من عدم معتمدين فى ذلك على
قوانين علمية محكمة ..

وأصحاب الرأي الثانى يقولون بأن هذا الكون الهائل
العظيم خلقه الله بكلمة منه .. ويستدلون على ذلك بأدلة قاطعة
لا يجد الشك إلى نفيها سبيلاً .. ومنها الفلسفات التى قامت على
براهين .. والكعب المقدسة التى ثبت صحة نسبها إلى الله
على أساس علمى .

ومما لامرئيه فيه أن الماديين قد قرأوا كثيراً من النظريات

العلمية والفلسفية والتاريخية المتصلة بواقـع مذهبهم الذى
يسايرونه منذ لقنوا تلك المبادئ واستوعبوها بالصورة التى
وصلتهم عليها .. وأنها استحوذت على أفكارهم فأنجذبوا إليها
وتهافتوا عليها تهافت الفراشة على النار .. حتى أكاد أجزم
بأنه لا مكان لغيرها من الفلسفات والمعتقدات فى شريط
مخيلتهم التسجيلى . كما وأن محو هذه الأفكار لم يعد أمراً
سهلاً إلا عن طريق عملية غسل المخ التى استعملها معهم دماء
المادة فى ظرف كانوا فيها مهينين لذلك . وهذه العملية
لا يلجأ إليها الناس إلا فى حالتين ضرورتين :

فى حالة الحرب للحصول على معلومات عن العدو من
جواسيسه .. والحالة الأخرى هى التى يستخدمها اعداء البشرية
لبث الأفكار المسمومة ضد القيم والمبادئ الإنسانية السامية
التي يربأ دعاة الإصلاح بأنفسهم أن يتخذوها وسيلة لنشر
مبادئهم وأهدافهم الإصلاحية ..

ولهذا فليس هناك من سبيل إلى مناقشة الماديين والملحددين

المتشككين في قضية من أهم وأبرز القضايا التي يعصدي لها العقل الأنساني عندما يبلغ قمة نضجة وهي قضية البحث عن حقيقة الألوهية . لاسيما وأن الماديين يهتمون غيرهم بالسذاجة لتفكيرهم فيما وراء الطبيعة من أسرار .. ولو كان مرد هذا الاتهام في نظرهم راجعا إلى أن البحث فيما وراء الطبيعة بدون هدف لا جدوى له لاسيما لهم بما يقولون .. ولكن الأمر عند هذا الحد مقبولا .

ولكنهم يقررون صراحة أن الكون طبيعي ..
ونسألهم : كيف عرفوا أن الكون طبيعي ؟ .. والإنسان لم يصل بعد ومنذ آلاف السنين إلى ذرة مما محتوية هذا الكون .. وحتى لو عرفوا ذلك .. فمن أوجد هذه الطبيعة ؟ .
وقبل أن نجرنا للتساؤلات المتعددة التي انفتح منها هذا المقدم لرهبب والتي لم يأتى دورها بعد في أبواب هذا الكتاب نسألهم : هل عند هذه المرحلة ينتهى تقدم العلم . أم هي خطوة من الخطوات في مسيرته التي لا يستطيع العقل البشرى أن يحدد نهايتها ؟ ..

ونبل أن نتوه في يبداء الأفكار . أو تلفنا دوايتها غير
طائل يمكننا أن نسأل سؤالا يوفر علينا ما يمكن أن
يضيغ من عمرنا هباء في تساؤلات لا أجابة مقننة عليها . نعم
نسألهم : ما الذي سبق الآخر . التفكير الديني أم التفكير العلمي ؟
والجواب من غير الحساج : . التفكير الديني هو أول
خطوة نحو الحقيقة تلاها بعد آلاف عديدة من السنين التفكير
العلمي . وكان التفكير العلمي وليد التفكير الديني . فهو الذي أنجبه
واوحى به . فلما شب عن الطوق ناصبه العناء . ولذا ذكرها
في لك الحادث الخطير الذي جاء بعد ظهور الإسلام وقيام
حضارته على أساس من العلم والمعرفة ، قام على أساسها نفر من
علماء المسلمين يبحثون ويدرسون ويقدمون للعالم بذور العلم
وأسسها التي ما أن خضاخت البحر الأبيض المتوسط وسهول
آسيا حتى ثار أصحاب الديانات هناك في وجهها مدعين أنها
من أعمال السحر وهمزات الشياطين ، واندفعوا يقاومون
العلم . فازدادت مأساة الصراع الإنساني ولسكن بصورة جديدة
في هذه المرة . إلا أن الفكر الإنساني لم يتراجع . وإنما دحر

هؤلاء المبطلين . واندفع يحقق الاعجاز العلمى ليثبت أن العلم ضرورة من ضروريات الحياة . وأن الدين الحق لا يعارض مع العلم الذى هو من حصاد الفكر الانسانى .

ومن هذا المنطلق أصبح رجال الكهنوت أعداء لرجال العلم حتى نادى بعض المفكرين المتعصبين للعلم فى أوروبا بجعل العلم بديلاً للدين

وجاء رائد المدرسة الاجتماعية الفرنسية الفيلسوف سان سيمون فرأى بأن العلم والدين كليهما ضرورى الانسان . وظل على ذلك حتى حذر من رفض الدين باسم العلم وهو يفارق الحياة قائلاً : « ليس هدف العلم وراثه الدين . ولا هدف الدين ايقاف تقدم العلم . إنما تجمعهما أرضية الوفاق والحوار لأن كليهما لازم وضرورى لتحرير واسعاد الانسان » . وهو ما أخذ به كارل ماركس نفسه حينما شعر أنه الحق فاعترف فى آخر أيامه بوجود الإله ضمن قوله : « إن اللحد قد عاش وقته أنه تعبير سلبى لا يعنى شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الاصلاء .. أن المعنى لديهم ليس هو انكار الإله . وإنما تحرير الانسان »

وبهذا فلن نفقد الأمل فيمن يستطيع أن يخلع رداء التعصب
جانبا ليحرر نفسه من هذا السجن الرهيب ويطل من نافذة
الحياة الحرة على هذا الوجود الهائل فيقرأ سطورا من كتابه
ربما هي وحدها تنير بصيرته وترد إليه صوابه .
فليمض معنا في المسيرة على صفحات هذا الكتاب ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . والصلاة
والسلام على من أوتى جوامع الكلم . النبي الأمي محمد ﷺ .

أما بعد

فهذا مدخل إلى كتاب « الكائن الأعلى » مطلق الكمال
والوجود ، أردنا به أن نبين بعض ما ورد فيه من مصطلحات
ونفسر الأدلة الفلسفية أو العلمية كما ورد أيضا فيها في مراجع
الكتاب أو الموسوعات العلمية الأخرى .

ألا وإن الفكر والعلم قد تعثرا ردها من الزمان دون
الوصول إلى الحقيقة المطلقة . حقيقة الذات الإلهية والتي
اسمينا هذا الكتاب بها تحت عنوان « الكائن الأعلى مطلق
الكمال والوجود »

ولم يمكن الإنسان مخلوقا لأكثر مما خلق له . وهو أن
يكون خليفة في الأرض التي هي جزء من ملك الله .
وتحقيقا لذلك وهبه الله آلة العقل التي سخر له بها ما استخلته

فيه . فيكشف له عن بعض الحقائق الكونية وفي مقدمتها حقيقة الألوهية عن طريق الالهام تارة وعن طرق التأمل في المخلوقات تارة أخرى مصداقاً لما ورد في الأثر « كت كتاب مخبرياً وأردت أن أعرف فخلقت الخلق في عروفي » .

وهكذا توصل للعقل البشري عن طريق الاستدلال المنطقي من ناحية وعن طريق تأمل مخلوقات الله من ناحية أخرى إلى إثبات وجود الله . وقد أقام الفلاسفة البراهين والأدلة لما توصلوا إليه من حقائق كونية أفضت إلى تفسير الوجود والسكان المطلق وما كان يكتنف ذلك من غموض . ومن بين هؤلاء الفلاسفة توما الأكويني الذي اتفق مع الفيلسوف الاغريقي أو المعلم الأول أرسطو في إثبات وجود الله بخمسة براهين وأن اختلفا في الجوهر . وقد اتفقت براهين فيلسوفنا الاكويني المنطق الرياضي . وهذه البراهين الخمسة هي :

١ — دليل الحركة الذي يثبت ويؤكد محرك أول لا يتحرك وهو الله .

٢ ويقوم الدليل الثاني على أن الموجود المتحرك يحتاج إلى
هبة فاعلة وينتهي إلى أن الله هو العلة الأولى .

٣ - وينشأ الدليل الثالث على فكرة الواجب والممكن
والجتماع . . ويخلص إلى أن الله واجب الوجود .

٤ - أما الدليل الرابع فيعتمد على فكرة الغائبة . . وأن
نظام الوجود يقتضى موجوداً عاقلاً يوجه الأشياء إلى غايتها .

٥ - والدليل الخامس يقوم على ما وصفه العقل به الذات
الالهية من صفات سلبية تنفى عنه ما لا يليق من ناحية الكمال

المطلق ، وثبوتية تعتبر من مظاهر هذا الكمال . . فهو ليس
بجسم ولا هو مركب . . بل وجوده ذاته . . وبذا تسقط

فكرة وحدة الوجود . . وصفاته الثبوتية ضربان . أحدهما
يعبر عن الذات من حيث هي مثل الكمال المطلق . . والآخر

المحض ، والوجود اللامتناهي . . وأنه واحد لا شريك له . .
والآخر يعبر عن صلة الله بمخلوقاته كالعلم والقدرة

والعدل والعدل . . وهي تختلف عن صفات المخلوقات الممثلة أشد
الاختلاف . . أى أن الله ليس بمصدر النظام وكفى . . ولكن

« الله خالق كل شيء » و « هو بكل خلق عليم » .. وليس له
مثيل في الحسن ولا في الضمير .. بل له « المثل الأعلى » و
« ليس كمثل شيء » ..

وقد وردت بعض المصطلحات العلمية في هذا الكتاب نود
أن نشير إليها أملاً في أن لا يتعثر قارئ في فهم مضمون أي
فكرة عرضناها فيه .. ومن هذه المصطلحات :

• محض تعني الشيء الخالص من كل شيء الذي لا يشاركه
طبيعته ولا تكوينه أي شيء آخر ..

• المطلق هو القائم بذاته والذي لا بداية له ولا نهاية ..
وهو يغير ولا يتغير .. وهو عكس النبي الذي ينسب إلى
ما هو أكبر منه أو أصغر ..

• واجب الوجود : هو وحده القديم الأزلي .. الذي
لا يحتاج في وجوده إلى موجد لأن وجوده من مستلزمات
ذاته .. ولذلك لا يجوز أيضاً القول إنه أوجد ذاته ..
لأن قولاً مثل هذا يدل على أنه كان متقدماً على ذاته
وهذا محال .. وهو ثابت إلى الأبد .. لا يزيد ولا ينقص

ولا يطرأ عليه تغيير ما .. ولذلك فأنه دون مساواة هو
واجب الوجود ..

وأخير كلمة جوهر حيث اختلفت الفلاسفة والناماء في أن
فه جوهر ..

فالملازمة ديكرت يرى أن « الله هو الجوهر الحقيقي » .
وغال الرئيس ابن سينا « معنى كون الله جوهرًا ، أنه
للموجود لا في موضوع .. وللوجود ليس بجنس » . وهذا
ما اجمع عليه جمهور الفلاسفة الأقدمين حيث رأوا أن الجوهر
هو ما ليس في موضوع أو بجمع آخر هو القائم بذاته .

ولكن ابن سينا أوضح ذلك بقوله : « الجوهرية ليست
من المقومات لأنها عبارة عن عدم الحاجة إلى الموضوع » .

ولقد رأي توما الأكويني أن « الجوهر يطلق على
الاعتامي .. فجوهر الاعتامي منتظر في كنهه إلى اعراض
» أما جوهر الاعتامي فستغن في وجوده ومستغن أيضاً في

في كل شيء غير الوجود .

ولعل هذا يكفيننا مؤونة فيما يعبادفنا من تعبيرات تحتاج
إلى بعض وضوح ..

من أوجد الكون

مما لا شك فيه أن أي نوع من الفكر توصل إليه الإنسان
في أي عصر من العصور كان ثمرة لزرع سابق في حقول
الفكر الإنساني على مدى عصور التاريخ ومراحله .

وإذا أردنا أن نعرف البذرة الأولى لهذا الفكر لما توصلنا
إلى ذلك تماماً وإن كنا قد فصل إلى حقيقة أن الفكر كان
ولايد تأمل الإنسان الأول فيما حوله حتى بدأت الفاسفات تشق
طريقها وربما الديانات أيضاً أرضية أو إلهية .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول لمن يشكرون الديانات:
على رسلكم .. فإن ما أوتيتموه من فكر ليس إلا حفيداً
لأفكار سابقة وصلت في النهاية بأصعابها إلى سر لم يكن

واضحاً أمامهم ولكن اكتشفوه بالبحث والتقصي والنظريات
الفلسفية التي استندت إلى براهين صحيحة أثبتت أن لهذا
الكومنوجنجد .

فإذا كان الماديون بفكرهم المقتبس والقاصر اعتقدوا أن
البحث في وجود إله لهذا الكون ضرب من المحال فضلاً عن
أنه يصرف الأذهان عن العمل الجاد . . ففي هذا افتئات واختلاق
لا صحة لوجوده . . ومرده إلى أن فكرهم يلزمهم بهذا القالب
التقليدي الذي يعتبر التعرر منه ارتداداً عن المذهب . . وإلام
هم ينكرون الدين ومعظم المفكرين ، فلاسفة وعلماء الذين
أثبتوا حقيقة الإلهية كانوا من أهل الديانات اليهودية
والمسيحية والإسلام . . والنظريات العلمية والكونية والاجتماعية
والاقتصادية كانت كلها ثمرة للنسوة التي وضعها هؤلاء
العلماء السابقين .

وإذن فلا مندوح من أن نجرد أنفسنا من كل تعصب
وندخل إلى محراب الحقيقة على بصيرة مثل أولئك العلماء الذين

عاشوا عاكفين على إثبات نظريات جالت بفكرهم .. فتوصلوا
في النهاية إلى غاياتهم ..

ففي الأثر : « الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها .. فهو
أحق بها » .

ومن الفلاسفة القدامى الذين حثوا على السعى وراء الحقيقة
المفكر الصيني بوذا الذي قال : « لنثق بالحقيقة وإن كنت غير
قادر على إدراكها فتظن حلاوتها مرارة وتهرب منها .. تفر
بالحقيقة لأنها أجمل مما هي .. وما من أحد يستطيع السيطرة
عليها .. إن إدراكها لا يكون إلا بالإيمان .. فأمن بها ..
وأحي فيها .. الذات هي خداعة تتداهى حلماً جيلاً ثم
يضمحل .. أما الحقيقة فتجلب الصحة والطهارة .. الحقيقة
باسم .. الحقيقة سرمديّة ولا خلود إلا فيها .. لأنها هي
وحدها تبقى إلى الأبد » .

وما هو ذا ديكارت أحد فلاسفة العصر الحديث يدهو
إلى البحث عن الحقيقة لأنها هي أول الغايات وآخرها بالنسبة

للإنسان فيقول : « خير السبل لتعرف كيف ينبغي أن نحيا
هو أن نعرف أولاً من نحن .. وما العالم الذي نعيش فيه ..
ومن هو خالق هذا الكون » .

ومما هو بدى رثبت علمياً وفلسفياً أن لكل موجود موجود
ولكل صنعة صانع .. وأن الإنسان في تاريخه الطويل لم يمش
على من هو أممي منه فكراً وأرجح عقلاً حتى ينسب إليه
إيجاد هذا الكون المائل وما اكتشفه من كواكب وأفلاك
وتجسوم وما يراه الإنسان في كوكبه من جيل الصنعة
وعبقري الفن في مشاهد الطبيعة التي لم تمتد يد إنسان إلى
صنعها كالجبسال وما تخللها من مشاهد تسحر الأبواب ..
وكالبحار وما احتوته من حياة مكتظة بالمخلوقات المعجبة
والأعماق الرهبة والألوان المتباينة .. كالنباتات والأزهار
والثمار المتعددة الأشكال والزاهية الألوان .. كالطيور
المتنوعة القصاصات والمختلفة الأصوات والأشكال والأحجام ..
فضلاً عن العوالم الأخرى التي لم يمد بصر الإنسان ولا

بصيرته إليها . وما أروع الإعجاز القرآني الذي نوه عن ذلك
يقول الله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن
الآخرة هم غافلون .. » أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق
الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وأن
كثيراً من الناس بلفقاء ربهم لسكافرون .
(٧ - ٨ - من سورة الروم) .

ما أشبه اليوم بالبارحة .. بل ما أشبه الماديون بالإنسان
البدائي حينما عبد للزرع والنيل والشمس والقمر والنجوم ..
ثم انتهى به المطاف إلى عبادة أخيه الإنسان المتسلط وقدم
وقدم الحرية قرباناً على مذبح المتسلطين من البشر المتألهين .
وشتان بين هؤلاء الماديين سواء منهم من يدينون بالولاء
للطبيعة وينتهجون حياة الإنسان البدائي في سلوكهم .. ومن
يتمخضون من تلك القوالب الجامدة سبيلاً للحياة واستعمار الأرض
زاعمين أن روح الحياة الحرة والمساواة تكمن في تلك النظريات
المحدودة .. ولا فيمن ظلوا على عبادة الأوثان من إنسان
وحيدوان وجماد وكانهم لقنوا أدواراً تمثيلية لا يحق لهم

المخروج عن نصها . حيث لم يخرجوا عن حيز الموجودات
 رغم ما يشتهم لعصر بلغ الذروة في المخترعات وامتطى الهواء
 وعبر أجواز الفضاء إلى عوالم أخرى شاسعة البعد .. وكان
 من بينهم من أسسهم في ذلك .. وبين من عرفوا الحقيقة
 ويسر كون وهم ينطلقون مع موكب العلم المساعد أنهم إنما
 يدفعون إلى تحقيق أمر من أوامر الله الذي سخر لهم ما في هذا
 الكون مشيراً إلى ذلك بقوله تعالى :

« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار
 السموات والأرض فانفذوا لا تنفسدون إلا بسلطان » .
 (٣٣ - الرحمن) .

وقوله جل شأنه : « فلا أقسم بالشفق . والليل وما
 وسق . والقمر إذا انسق . لتركبن طبق عن طبق » . (١٦ -
 ١٩ - الشفق)

وهذا قد تحقق بالفعل بصعود الإنسان إلى طبقات الجو
 العليا واجتيازه إياها إلى القمر . . وهذه من آيات الإعجاز

القرآن في أنباء عن هذا الحدث قبل وقوعه بأربعة عشر
قرناً من الزمان . . . أوليس هذا بدليل قاطع مانع على وجود
صاحب هذا القول وموجده . . . وهو الله ؟ ! .

وأخيراً وليس آخراً . . . إذا لم يكن هذا الذي ذكرناه
يكنفهم للاستدلال على وجود خالق لهذا الكون فليثبتوا لنا
العكس أو فليتابعوا المسيرة .

الله موجود السكون

كان وما يزال العقل هو الجهاز الذي يبحث به الإنسان
من حقيقة كل شيء . حوله ومنه انبثق نور الفهم يضيء
له الطريق إلى ما يريد استقصاء كنهه والتعرف على حقيقته
فما بالنا ونحن ننسب كل جهاز توصل إليه الإنسان إلى
مخترعه وصانعه فنقول مثلاً : جاليليو هو الذي اخترع
التلسكوب . . وجراهام بل هو الذي اخترع الفيليفون . .
وماركوني هو الذي اخترع جهاز اللاسلكي . . واديسون
هو الذي اخترع المصباح الكهربائي . . ومع أننا لا نستطيع
أن نحدد كنه الكهرباء . وإن عرفنا أسبابها أو مسبباتها .
أفستطيع أن نفكر بوجود الطبيعة لا نتالم نعرف أسبابها ومسبباتها
مع أن العقل جهاز من أجهزتها والحواس أيضاً أجهزة لها
وظائف سبقت وظائف تلك الأجهزة التي اخترعها الإنسان . .
بل وهي التي بدونها لا تؤدي هذه المخترعات وظائفها . .
وأيضاً أليس العقل هو الجهاز الحساس الذي به اكتشف

الإنسان ما حوله من أشياء وعرف بعضاً من حقائقها . . . وبه
اعتدى الفلاسفة إلى نظرياتهم التي أصبحت مسلمات حيث انتهت
بالبرهنة المنطقية إلى نتائج مقبولة علمياً .

وإذا كان العقل هو كما أسلفنا الجهاز الذى وضع بصائرنا
على هذه الحقائق فما بنا نحاول تقييده ورده عن تأكيد حقيقة
الموجد الموجودات . . . وما الفرق بين أن نسميه الطبيعة
وهي تعنى ما يحيط بالكون ويسيطر عليه وبين أن نسميه الله
وهو القوة المطلقة التي نراها في كل شيء ولسكننا لانستطيع
تحديد ذاتها ولا طبيعتها لأن ما نعرف من الكون وما لانعرف . .
ما هو ظاهر وما هو باطن موجود في حيزها .

وكما أن العقل دخل في صراع مع كل ما رآه في الطبيعة
أو أحسه ليعرف حقيقته وليأنس إليه . . . فإنه جرى شوطاً
بعيداً باسم الفلسفة فيها وراء الطبيعة . . . وكما أهدى للإنسانية
خير ما في الطبيعة بتعريفها بأصولها وقبلنا منه ذلك . . فلماذا
نرفض ما جاءنا به عن خالق هذا الوجود الذى كان هو دور

الفلاسفة والعلماء في هذا الحياة مع أنه قدم لنا القوانين التي
تحكم الكائنات .

ولم يكن اعتراف هؤلاء الفلاسفة والعلماء بوجود الله
ضرباً من الخرافة أو تخدير الشعوب وإنما كانت نظريات علمية
قضوا فيها حياتهم دون أن يبتغوا من وراء ذلك جزاء ولا
شكورا . .

لقد كان رأيهم في وجود إله لهذا الكون مبنياً على أدلة
عقلية وبراهين منطقية انعموا منها إلى أن كل شيء يكون في
دائرة البحث يمكن أن يقع تحت أحد أمرين . . أن يكون
واجب الوجود أو ممكناً . . فإن كان واجب الوجود فهو
المطلوب . . وإلا استلزم الدور أو التسلسل وهذا يصبح
باطلاً وغير مقبول عقلياً ولا منطقياً . . ولما كان كل موجود
نراه له مؤثر أوجده فلا بد أن يكون هذا المؤثر موجود
بذاته وليس بمؤثر سواء . . ومن ثم استدلوا على وجود
الله المؤثر في هذا الكون :

وهو ما توضّحه آراء الفلاسفة والعلماء فيما بعد ..
فها هو ذا أفلاطون يقرر بنظره وجود إله لهذا الكون
بعد أن برهن على ذلك ببراهين ثلاثة فلسفية وعامية ومنطقية
لا يجد الطعن إليها سبيلاً ..

فقد بنى برهانه الأول على وجود علة فاعلة لهذا الكون ..
وفي الثاني برهن على وجود علة محرّكة .. وفي الثالث جعله
كعلة غائية حيث يقول : « إن كل ما يوجد بعد أن لم يكن
موجوداً لا بد لوجوده من علة مؤثرة فيه وهي لا تؤثر
إلا إذا اشتملت على قوة التأثير .. وهو يعني أن ما ينشأ
لا يوجد إلا بفعل علة لأنه من المستحيل أن يوجد شيء
بدون موجد » .

ويقول : « إن الذي ينتج العلة لا بد وأن يكون خالقاً
لها .. وإذا لا بد أن تكون هناك قوة قادرة على فعل ما لم
يكن موجوداً .. ومعنى ذلك أن الموجودات إنما توجد
بفعل موجد وهذا يبرهن على أن هذه الطبيعة التي نشاهدها

ويدلنا وجودها عليها تثبت بالضرورة وجود موجد لها .

وأن ما قاله أفلاطون عن وجود علة حركة أوضاعه
أرسطو فيها بعد حيث تصور العالم كتنفس وجسد . . . والنفس
لا ترى ولسكنها تحرك الجسد المرئي . . . ولم يكن يقصد النفس
الإنسانية ولا الجسد البشري وإنما يريد ذلك المجهول الذي
يحرك كل ما في الطبيعة كما تحرك الروح الإنسان وهو سر
غامض لم يعمل العلم إلى اكتشاف جوهره .

ويقول أفلاطون في برهانه عن العلة الغائية : « أما
حكيمته فهي لا نهائية تظهر واضحة في خلقه المعقن الصنع
المتناسق حيث مزج عنصري الماء والهواء بعنصري التراب
والنار لكي يكون جسم الحياة المقعم بالجمال والانساق . . .
هذا وإن انجذاب الإنسان إلى الجمال والكمال لما يؤكد
تعاطف الإنسان مع غيره من الموجودات التي تسبح في ملكوت
واحد بفطرة الله التي فطرهم عليها . . . وصدق الله بكلماته التي
تعان الحقيقة المطلقة في قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس

عليها لا تبديل لحاق الله .

وقال بيركلي وديكارت : « إن الأنسجام الوظائف في الكون يرجع الفضل فيه إلى الله » .

وقال كريس موريش رئيس مجمع العلوم في نيويورك : « أسباب الإيمان بالحقيقة الإلهية يعرفها العلماء وتأني عليهم عقرهم أن يردوها إلى المصادفة » .

وقال العلامة جيمز جيتز : « المشاهدات الرياضية في الكون تثبت أنه لم يوجد مصادفة » .

وقال سير آرثر ادنجهتون : « تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث » . بمعنى أن الكون محرك .

وقال كانت : ضميري يثبت بوجود إله للعالم » .

وقال نيوتن : « النظام الذي جعل في الكون يدل على وجود إله » .

وقال اينشتاين : « إن ديني يشمل على الإعجاب المتواضع

بذلك الروح العليا غير المحدودة التي تكشف في سرها عن بعض
التفاصيل القليلة التي تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ..
وهذا الإيمان القلبي العميق .. والاعتقاد بوجود قوة حكيمة
عليها نستطيع إدراكها خلال ذلك السكون الغامض يلمحني
فكرتي عن الإله » .

ويعتقد أنت سينسر بنكر وجود إله لهذا الكون بينما
كلامه بقرر وجوده . إذ يقول : « المجهول هو تلك القوة
التي لا تخضع لشيء في العقول لكنها هي مبدأ كل معقول وهي
المنبع الذي يفيض عنه كل شيء في الوجود » .

وقال دارون : « إن الأنواع تفرعت من جرثومة الحياة
التي أنشأها الخالق » .

وقال والاس : « إن الكون لا يمكن أن يكون قد وجد
بغير حلة ماثلة .. ولكن إدراك هذه العلة يعلو فوق إدراك
العقل البشري » .

وأخيراً .. إذا كان للعقل الإلكتروني موجد فكيف

لا يكون للعقل الإنساني موجد . . هذا هو ما يمكن التعرف
عليه في الفصول القادمة .



الذات الإلهية ..

انتهينا فيما بسطنا في قضية الألوهية إلى أن وجود الله واجب حتمى يقضى به وجود هذا الكون الذى قالت البداهة قبل البحوث الفلسفية أن كل موجود له موجود .

وهنا تبدأ قضية الذات .. ومن المعروف بداهة أيضا أن كل موجود له ذات أو جوهر .. ولسكن ليس من الضروري أن يحدد جوهر الذات الإلهى تحديد تعيين متصور أو يرى .. ذلك لأننا كثيراً ما نرى آثار أشياء غامضة لم نستطع تعيين جوهرها برغم أننا نرى آثارها .. فالكهرباء كما ألمنا فيما مضى نرى نورها وأسباب وجودها ولكنها لا نعرف سرها الحقيقى وهى من خلق الله الذى هو نور السموات والأرض .. هذا بالنسبة لشيء مادى ملموس ..

وكذلك الروح نرى آثارها في الحياة وتأثير الحياة بها من وجود وعدم والكنة لم نعرف حتى الآن جوهرها الذي أشار إليه العلي القدير بكلماته : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . (٨٥ - الاسراء) وان ذات الله لا تخضع لتقييم الفكر الانساني لها ولا لمقاييس العلم مهما بلغ من التقدم . . . ونفس العقل لم يكتشف الإنسان كنهه مع أنه هو المحرك الأول لكل أعضاء الجسم وكل ذرة فيه تنبثق منه الأوامر بالحركة وبالكلام . . . فما بالنا ونحن لم ندرك هذا المحسوس المرئي أن ندرك ذات الله بجوهرها وكنها . . . وهذا فعلا ما قال به الفلاسفة والعلماء على مر مهور التاريخ وفي مقدمتهم الفيلسوف الرياضي فيثاغورث اذ يرى أن الله واحد لا كالأحاد . . . فلا يدخل في العدد . . . ولا يدرك من جهة العقل . . . ولا من جهة النفس فهو . . . فوق الصفات الروحانية . . . غير مدرك من نحو ذاته وإنما يدرك بآثاره ، وصنائه وأفعاله . . . فلا الفكر العقلي يدركه ولا المناطق النفسى يصفه . . .

واننا إذ نورد هنا بعض ما قاله هؤلاء الفلاسفة في هذا الموضوع ليس إلا لتتويز من لم يؤت قسطاً من الفكر يحاول الغوص في بحر لا يستطيع أن يصل الى قراره حينما يقول : هذا خلقه الله . . فن وراء وجود الله ؟ ونختار من الفلاسفة المحدثين الذين ولدوا مع فجر النهضة وشبوا في ظلال العلم الحديث .

فالفيلسوف الانجليزى جرين يرى أن الله ذات مشخصة . . بينما يرى ليستر أن الله ذات . . ويقرر الرئيس ابن سينا ان واجب الوجود ومن لم يتعين لا يوجد . . وقد ثبت بالدليل وجوده فهو إذن متعين .

وهؤلاء لم يقولوا بأنه تعيين مرئى ولا متصور . . فلم يصل الذهن الى تخيله ولا التفكير في تصوره وكل ما يمكن هو أن يرى آثاره وتأثيره في ملكوت السموات والأرض مما خلق ويخلق . .

ويقول عالم الذرة أدنجتون نتيجة لما توصل اليه من علم لا متناهى برغم أنه يخدع البعض بأنهم على مشارف المقتضى

فيه . . يقول : « العالم غير المنظور يوحى برومسة الذات
الالهية عليه » .

كما قال العالم الصوفي التفتازاني : « الله ليس جنسا لكنه
حقيقة نوعية بسيطة ولذلك لا بد من تعين يميزه . . . وقد يكون
هذا التعين عدما » . .

وقد عقب الإمام محمد عبده على كل هذه الآراء بما يوضحها
ويضع النقاط على الحروف بقوله : « يجب ألا يكون في وصف
الله غلو في التجريد ولا دنو من التحديد » .

وهذا يعني أن لله ذاتا معينة لا يعلمها إلا هو وحسبنا أن
نقف عند ما عرفنا وما سبق أن نوهنا به وأن لا نتعدى ما أمرنا
به وما ليس لنا به علم فهو سبحانه الأول بلا بداية والآخر
بلا نهاية كما قال في محكم كلماته : « هو الأول والآخر
والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » . (سورة الحديد)
وقوله : « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » . (١١ -
الشورى) وقوله : « وكان الله بكل شيء محيطا » (١٢٦ -
سورة النساء) وهذا يجرنا إلى البحث عن الأبن . . أو مكان
وجود الله وهو ما نلتقي به في الباب التالي .

أين الله ؟

على ضوء ما تقدم من القول بأن لله ذاتاً ولذاته تعين نجد
سؤالاً يطرح نفسه علينا وهو : وأين يوجد الله ؟ . . وهذه
مشكلة من السهل أن تقبل العقول المستتيرة الرد عليها طبقاً
لما سبق أن أوضحه الفلاسفة والعلماء بالنسبة لذاته تعالى . .
فإنه من المحال أن نقول بوجوده في السماء وهو خالقها ولا
في الأرض وهو موجودها كما أشار إلى ذلك بعض العلماء
بقولهم : « إنه أسمى من أن تحده الفوقية أو التحتية أو
اليمينية أو اليسارية » .

وزيادة في الإيضاح أو برهاناً على ذلك نقول : -
بما هو معروف أنه إذا تحدد ذات الموجود أمكن تحديد
مكان وجوده . . ولأنه لا يحدد ذاته إلا برؤياه أو لمسه وذلك

باعتناء بعض المخلوقات التي لا ترى إلا بأجهزة غاية في
الدقة كالجراليم أو الميكروب أو الفيروس تلك التي تملأ
الجو ولا نراها ولا نلمسها إلا على أثر مرض . . وكذلك
الالكترونات والبروتونات أو بمعنى أشمل مكونات الذرة
حيث لا تثبت في مكان ولا ترى إلا بأجهزة غاية في الدقة .
ومن هذا المنطلق نقول : إذا لم نستطع تحديد مكان وجود
بعض المخلوقات فكيف يمكن تحديد الأين بالنسبة لذات الله
التي لا ترى أو يلمس جوهرها .

لقد جرى الفلاسفة والعلماء شوطاً بعيداً في البحث عن
الأين بالنسبة لله الذي ثبت وجوده برهنة بوجود ما أوجد . .
وخرجوا على العالم بحتمائق ثابتة لا رأى لأحد كائناً من كان . .
بعدها قال أرسطو : « المحرك الأول (أى الله) ليس
في مكان ما لأنه غير جسمي ولأنه ليس في حاجة إلى
مكان معين » .

وقال الإمام الغزالي رداً على سؤال الزمخشري عن معنى

الآية : « الرحمن على العرش استوى » . قال : « إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أيذية فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بأيذية أو كيفية » .

وقال جبهة من العلماء : « الله موجود في كل مكان ظاهراً وباطناً . . فهو موجود في الحالة الأولى لأنه لا يقدر أحد أن يجهل وجوده . . وموجود بالحالة الثانية لأنه لا يمكن لأحد أن يعرفه كما هو في ذاته » .

وكما قال جل شأنه : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . (١٠٣ - الانعام)

وبرى اسحاق نيوتن ان مكان الله مطلق حيث لا بداية له ولا نهاية . . وبمقرب عالم النسبية اينشتين على ذلك بقوله : « المكان المطلق والزمان المطلق ليس لهما وجود . . لكنهما موجودان فقط إذا وجدت الاشياء والحوادث . . أى أنهما صور للادراكات الحسية » .

وهذا أقصى ما يقوله الإنسان بالنسبة للمكان المطلق والزمان

المطلق وهما من علم الله . . إذ ثبت بعد غزو الفضاء أن الزمان في الأرض يختلف عنه في الفضاء إذا أن الوقت على الأرض أسرع منه في الفضاء . ولتقريب المفهوم الحقيقي لذلك نقول انه إذا ولد اثنان على الأرض وغزا أحدهما الفضاء ثم مكث سنين فإنه عندما يعود إلى الأرض يقل عمره عن زميله الذي مكث في الأرض نفس السنين . وهذا مما يرينا أن الله لم يمحيز محيز ولم يحد بحد ولم يعين جوهره فلا يمكن أن يحدد له مكان .

ويستشف الصوفي المسلم العراقي مما قرأ من فلسفات وعلوم وقرآن أنه وإن كان لكل ذات مكان يتفق ونوعها فانه يمكن تقسيم الأمكنة بالنسبة للموجودات إلى ثلاث :-

مكان للأجسام المادية ويشتمل على ثلاثة أنواع : ذات الجرم التي تشغل حيزاً وحركتها تستغرق زمناً . . والأجسام اللطيفة كالهواء والصوت وهذه تحرك بعضها البعض وزمنها يختلف كثيراً عن زمن الأجسام ذات الجرم ، إذ أن حركة

المادة معها كانت مربعة فإنها تحتاج لزمن أطول كثيرا مما تحتاجه حركة الهواء والصوت .. والضوء ثالثها أمرع من كل ذلك وليس له خير كغيره مما أسلفنا إذ لا يدفع الضوء بعضه بعضاً كما تدفع المادة مادة أخرى لاحتلال حيزها أو مكانها وإنما تتداخل الموجات الضوئية معا مكونة موجات مركبة جديدة . والمكان الثاني للأجسام غير المادية أو غير المعجيزة وهو مكان الجن والملائكة والروح .

والثالث وهو مكان الله وهو منزّه عن الأبعاد والمسافات والتعديد والأزمنة تنزيها تاما وفيه يلتقى كل ما لا ينتهي .
وإذا كان هناك من أنواع الضوء الأشعة غير المنظورة

مثل الأشعة السينية وتحت الحمراء والليزر وغيرها لا ترى ولكنها تنفذ في الأجسام وكذلك الموجات الكهرومغناطيسية التي تنتشر في الفضاء أو الأثير ولا يمكن تحديد مكان أو حيز لها مع أنها مما توصل إليه الإنسان عن طريق العلم .. فكيف يجوز أن نطالب بتحديد مكان لله خالق كل شيء .. والذي قال : لا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من

عليه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده
حفظها وهو العلي العظيم » (٢٥٥ - البقرة).

وقوله تعالى : « وما تكون في شأن وما تأتوا منه من
قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون
فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (٦١ - يونس)

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في
الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا
هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما
كانوا . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . . ان الله بكل شيء
عليم » (٧ - المجادلة) .

وقوله تعالى « الله نور السموات والأرض » (٣٥ - النور)
وليس لهذا تأويل أقرب من القول بأن الله في كل مكان .
ولماذا تفتنع بما ذكرنا في الأبواب السابقة ؟ . . هذا ما سوف
ندلل عليه فيما يأتي بعد إن شاء الله . .

لمذا الإله ؟

عندما يعتد الإنسان بفكره ويسفه أفكار غيره ممن سبقوه
يجب أن يهذ كر دائماً أن الفكر في تطور مستمر وإن أجيالاً
تأتى بعده ستنتظر في فكره مثل نظراته في فكر من سبقوه
ولهذا ينبغى على من يرفض أفكار غيره أن يقدم البراهين
المثبتة لرأيه سواء كانت هذه البراهين اجابة لسؤال مضاد
لفكره أو مدحض لبعض ما جاء به هذا الفكر . . وأن يعلم
مسبقاً أن من سيأتون بعده سيدققون فكره أو يرفضونه .
وهكذا الحياة دواليك . . يوم لك ويسوم عليك . ونظرة
موضوعية على نشأة الفكر الدينى منذ العصور الأولى لوجود
الإنسان تعطينا الدليل تلو الدليل على ذلك .

فالإنسان الأول نزع إلى التنفيس عن غرائزه تارة بالحرب
مما يخيفه وأخرى بالرجاء في مرضاته إلى أن توصل لعاطفة
الاجلال والقدس لما يعتبره مصدراً للخير والشر معا . .
ففى وادى النيل قدس المصريون القدماء النيل باعتباره مصدراً

كثيرا من مصادر الحياة لهم إذ لم يؤد بذبت الزرع ويحيى
الضرع ويروى الإنسان . بل ورأوا أن العكس صحيح . .
فإنهم بقعة اققرت من الماء إلا وهلك من فيها وما فيها فاعتبروا
ذلك نقمة بعد الإله منها .

كما عبدوا الشمس حيث شعروا بما يكمن فيها من امرار
لمسوها فيما بين وجودها وغيابها . . حيث ينبعث منها الضوء
الذى ينير الحياة . . والحرارة التي تشر فيها الدفء . . بل
وسبقوا العالم قبل توصله إلى الأجهزة الحديثة التي عرفتنا
بما تقوم به الشمس من أمداد النبات ببعض مقومات الحياة
وكذلك الإنسان والحيوان كمنخير مياه البحار التي تعود إلى
الأرض ماء للسقيا والري . . وكانضاج الثمار ومد الأشجار
بالغذاء اللازم .

وعلى هذا النمط عبدوا كثيرا من الحيوانات والطيور
والهوام لما تحمله من أسباب الخير والشر .

وفي باب الهوا الشمس والقمر والأرض . . وعبيد

السمريون الشمس والقمر والنهر وتموز إله أزرع . . وفي
الهند قدس الناس قوئى الطبيعة . . السماء بما فيها . . والأرض
وما عليها من جبال وأتجار وأشجار والجذس . . وفي فارس
عبد الناس الشمس وأنتا أله الخصب والنار والطبيعة .

وبهذا يسجد الناس في كل مكان ينفقون في تصوراتهم
الأولى للآلهة . . ويتطور الفكر الإنسانى أصبحت هذه
الآلهة في نظرم آلات مسخرة فتشككوا في قدرتها على النفع
والضرر وراحوا يبحثون عن الإله الحق .

فهذا أخناتون في مصر يدعو إلى الوحدانية وإثبات أن
الله ليس شيئاً من تلك التماثيل ولا المعبودات ولا الملوك وإنما
هو خالق كل شيء . . وكانت دعوته إلى توحيد الآلهة نقلة إلى
فكر جديد مستنير أطل به الإنسان على مشارف الفلسفة . .
وفي مناجاته لإلهه الواحد يقول : أنت الإله الأحد ولا شبه
لك . . ليس كمثلك شيء . . خلقت الأرض حسبما تهوى أنت
وحدك . . خلقتهما ولا شريك لك . . خلقت الإنسان والحيوان

وكل طائر يحلق بجناحيه وكل صغير وكبير وكل ما يمشي
ويطير .. وفرت لكل انسان ما يحتاج اليه .. وجعلت لكل
مخلوق منهم أياما .. ودودة .. أنت تعطي الحياة للجنين في
احشاء النساء .. وانك تصنع من النطفة الرجال .. حينما
تغيب في أفق السماء تظلم الأرض وتبدوا وكأنها ميتة ومضى
يصبح الصباح تشرق معالقا في الأفق .

ثم كانت النقلة الثالثة التي ظهر فيها الفلاسفة بفربون للعقل
من حقوقة الألوهية والتي ظهر فيها الفلاسفة الرياضيون
الذين بنوا نظرياتهم على براهين علمية يدركها العقل كما بينا
في الفصول السابقة .

وفي عودة أخرى الى مراتب آلهة نجد الانسان في البيئة
الاجتماعية اتخذ الإله بدافع غريزي كما نوهنا لعله دافع الفطرة
التي فطر عليها من لدن موجد .

وهو في المرحلة الثانية يدلنا على انجذابه إلى القطب حينما
يبحث عن أصول وجوده وما يسميه لإنسان في العصر
الحديث الله .

وبعد وضوح الرؤيا على هذه الصورة المقنعة جاء دور
الإلهام السماوي . . وجاءت الديانات بعد ذلك تقرى مسفرة عن
وجه الحقيقة الذي لا يفلقه أدنى شك فعرف الإله إسما وصفات
ودل تعدى الديانات للانحرافات البشرية بعد ذلك وشروق
شمسها في كل مكان تأكيداً حقيقياً لنهاية مراحل البحث عن
الله وللالتجاء بالبحث إلى ما يكلفه ملكة العقليم من اسرار .

وهكذا عرفت الإنسانية الإله الحق في نهاية انطاف
وبالوحي الإلهي حيث قال الله تعالى لنبي رسول من أنبيائه هـ
سيدنا موسى عليه السلام : « انا الله لا اله إلا أنا فاعبدني
واقم الصلاة لذكري » (١٤ - سورة طه) .

كما قال لعيسى عليه السلام : « يا عيسى بن مريم أنت
قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله . . قال سبحانه
ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . . ان كنت قلته فقد
عليه . . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك انت علام
الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم

وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .
(سورة المائدة ١١٦/١١٧) .

وَمَا هُوَ ذَا سَيِّدُنَا عِندَ اللَّهِ يَا صِرْهُ رَبُّهُ بِأَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ
بِإِلَهِ الْوَاحِدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى
إِلَيَّ أَنْمَ الْأُحْكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ . . . » . فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
مَعْلًا صَالِحًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .
(سورة الكهف ١٠٩/١١٠) .

وَكُنَّا نَحْدِثُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فَصَنَعْنَا الْعَرَبَ وَبَلَّغْنَاهُمْ أَنْ
يَأْتُوا بِسُورَةٍ أَوْ بِآيَةٍ مِثْلَ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَهُمْ قَدْ أَوْتُوا الْبَيِّنَاتِ
قَالَهُ يَحْدِثُ الْعِلْمُ الْحَدِيثَ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ بَوَادِرُهُ فَيَقُولُ لِأَهْلِهِ
« قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ . » (سورة الأنعام ٤٦) .

فَهَلْ يَسْتَعِيقُ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ أَوْ يَأْتِيهِ النَّاسُ لِسَوَاءٍ وَهُوَ رَبُّ
كُلِّ شَيْءٍ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِ كُلِّ نَبِيٍّ وَكُلِّ مُؤْمِنٍ بِهِ نَبِيٍّ

يقول: « قل أفغير الله فأبقي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب
كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم
مراجعكم فينبشكم بما كنتم فيه تكفون »
(١٦٤ - سورة الأنعام)

فلمن يكون الدين ؟ وهل ينبرهان ؟

ما هو الدين . . وماذا ؟

أندفع الإنسان بشيء داخلي في نفسه لا يعرف كنهه إلى البحث عن من يدير هذا العالم وينظم شئونه ويخضعه لمشيئته بعد أن عرف إمكانات نفسه وقدراتها التي ظلت وستظل محدودة نسبياً إذا ما قيسَتْ بما يكتنفه هذا العالم للمنظور منه والغامض وقد أوضحنا فيما مضى لماذا أله الإنسان كثيراً من ظواهر الطبيعة الحي منها وغير الحي ، معتقداً أنه يملك قدرة ونفحة وأنه اكتشف أخيراً أن لاهول ولا قوة لبعض تلك الألهة التي كان معظمها أصماً لا يسمع ولا يرى ولا يعقل . . وأنه عندما توصل الإنسان عن طريق الفلسفة أولاً وعن طريق الوحي الإلهي ثانياً إلى الحقيقة نقل ولاءه لتلك الالهة إلى الإله الحقيقي الذي أثبت الفكر السوي والعلم الحديث صحته وجوده وتلاقياً معاً في ملقى طرق البحث عنه .

فالذين اعتقدوا أن الطبيعة تملك مصادر الخير والشرواها تستحق التقديس لم يخرجوا عن مفهوم من اعتقدوا أن الإنسان

القوى جدير بالتأليه لأن القوة تصلح درعاً للخير أو للشر . .
والذين ألهوا للعقل رأوا أنه يملك مفاتيح الخير والشر . .
وكلهم كان ينبغي الوصول إلى الحقيقة مصداقاً لقوله عز
وجل : « إنما نعبدكم ليقرّبونا إلى الله زانين » .

ولما توصل الإنسان إلى من بيده كل ذلك نقل ولاده للعري به
وهو الله الذي يدين له كل ما خلق بالعبودية .

وقبل أن يصل العلم إلى هذه الحقيقة بأكثر من ألف سنة
بل بثلاثة عشر قرناً أعلن الله الإنسان الذي استخلفه في أرضه
بها في كلماته التي لم يعرف أحد ما تكنه من أسرار إلا بعد
التوصل إليها .

وكما أن الحقائق الكونية ظلت مغلفة على الأفهام رديحاً
من الزمان فإن مفهوم الدين لم يكن سهلاً تحديده . . هل هو
مجموعة عواطف سامية نحو من بيده الحياة والموت والنفع
والضرر . أم هو جماع الأخلاق والشرائع والقوانين التي تنظم
الحياة في الأرض فترضي الخالق والمخلوق . . أم هو منظم

الغرائز الذي يوجهها للخير ويحميها من الشر ربما تنطبق عليه هذه التسميات بل ويضمها جميعاً . . ومع ذلك فإذا قلنا أنه الولاء المطلق لله رب العالمين الذي ندين له الخلاق جميعها لأنه موجودها ومبعلها بالحياة وسائلها بعد ذلك ومحاسبها عما فعلت خيراً أو شراً فإننا نتفق مع من سبقونا في البحث حول مدلول الدين ومفهومه . .

وها هي ذي أقوال بعضهم نوردنا هنا للحقيقة والتاريخ . . لقد عرفه الفيلسوف الألماني هيجل بقوله: «إن الدين حد المعرفة الذي تدركه النفس المحدودة المتحيزة من ماهيتها لنفس مطلقة غير متناهية» .

وقال عنه الفيلسوف اسكندر باين: «إن الدين عاطفة يكونها الانفعال المادي، مقروناً بالخوف وحساسية الموضوع العظيمة» .

ويرى هكسلي أن الدين اجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه في الحياة .

ويقول ادوارد كارد أن الدين هو أسمى ما وصل إليه الإدراك العقلي قائلا : « أن دين الإنسانية تعبير عن أقصى حالة عقلية يعالج بها الكون » هو المعنى الجميل لما يبلغ إليه إدراك الإنسان من معرفة الحقيقة الأشياء .

وإذا استخلصنا مما مضى أن الدين هو المنهج الذي يوجه سلوك الإنسان والجماعة إلى الخير ويحول بينهم وبين الشر أمكننا معرفة غاية الدين وأصبح التقارب بيننا وبين الفلاسفة الذين سبقونا بأجيال عدة في وجهات النظر يشبه العلاقة ما بين نورين أحدهما ينبعث عن بعد والآخر يبدو عن كسب .

فالفلاسفة رأوا الله بنظرياتهم الفكرية ونحن رأينا بالوحي السامع فكان إلينا أقرب منهم . . واستغننا بأراء الفلاسفة وتأكداً لما نقول لا نرى مندوح من ذكر بعض آرائهم في هذا المجال . .

يقول الفيلسوف الألماني كانت : « ينحصر الدين في اعتقادنا بأن كل واجباتنا أوامر إلهية » .

ويقول كارايل المستشرق الفرنسي : « أن الدين هو الشيء الذي يعتقد الإنسان في صحته إعتقاداً عمياً .. هو الشيء الذي يحسه الإنسان بقلبه .. ويأخذه على أنه حقيقة واقعة فيما يخص بعلاقاته المتعددة بهذا السكون المستعمق في الغموض والأصيل في الاستغلاق .. وفيها يتعلق بواجباته في هذه الدنيا ونهاية هذه الحياة » .

وفي حوار هادئ مع أولئك الذين ينصرون الدين ويأبون أن يخضعوا للغموض الذي غم عليهم أن يروه حينما أهالوا تراب الألحاد على فطرتهم فوآدوها .. إلى هؤلاء ومن يلوذون بهم نقول لهم تعالوا معنا إلى كلمة سواء .

من ذا الذي خاق كل مانع به الإنسان من طعام وشراب وغيره مما يحتاج إليه في هذه الحياة .. ومن ذا الذي يملك أسباب القوة جميعاً ؟ .. أهو صاحب الملطان من حاكم أو غنى أو طاغية متسلط في مكان محدود في هذا الوجود الهائل ؟ .. أم هو الطبيعة وما تحتوى عليه في باطن الأرض من حمم تتفجر

براكين أو مياه تفور طوفاناً . . أو ما يضمه في الآفاق
والسموات من نجوم وأفلاك تتساقط جزئياتها نيازك أو
تصطدم سحبها فتُرسل الصواعق إلى غير ذلك مما يحتويه هذا
الملكوت العظيم الذي لم ولن يستطيع كائن من كان إلا الله أن
يعرف حقيقته ويحيط بما فيه من أسرار . فلماذا إذن نأبى أن
ندبّن لله ونرضى أن ندبّن لبعض خلقه الذين أوتوا السلطان
والأمر مجازاً إذ السلطان الحقيقي والأمر لله الحى القيوم الذى
لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يدركه الضعف والشيخوخة ولا
الموت والفناء .

ومن هنا أما يجدر بنا أن نصحيح دعوى أن الدين إن كان
حقاً فلماذا لم يستطيع تحقيق الأمن للناس جميعاً وأن يقيم العدل
بينهم ؟ ذلك أن الدين مبادئ وقيم ومثل ومنهاج مطروح
للعمل بمقتضاه وليس إنساناً حق مطالبه بذلك . . وكل ما فى
الأمر أن الفرق بينه وبين النظم التى استعفاها أصحابها من
سبقوم وكان من بينهم الفلاسفة والمصلحون والأنبياء والمرسلون

ورجال القانون والمذاهب المختلفة أن تنفيذه لا يخضع إرادة
أصحاب سلطان يخشى بأسهم العاجل في هذه الدنيا ولكنه يخضع
للضمير الذي نشأ على التعيين بأن الملك لله في الأرض وفي السماء
الذي لا إله غيره وتصديقاً لقوله تعالى : « ذلكم الله ربكم
لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء
وكيل » . (سورة الأنعام - ١٠٢)

وقول رسوله الصادق الأمين عليه السلام : « أعبد الله كأنك تراه
فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهل يكون الاذعان خوفاً ورجاء إله الله المستحق الحمد
والثناء والخشية والأمل دون سواه . . . وسبحانه من قائل :
« قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأنتم من دونه
أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرأ . . قل هل يستوى
الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله
شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » قل الله خالق كل
شيء وهو الواحد القهار » (١٦ - الرعد)

وشتان بين ولاء مطبوع وآخر مصنوع إذ الأول دائم
في نفس صاحبه لا يتحول ولا يضعف بينما الثاني متغير مع
السلطان والهوى .. وهو ولاء الماديين الذين ظنوا أن الحياة
طعام وشراب ولا يتوفر إلا بالنظام الذي يعيشونه ولو رجعوا
إلى الوراء لوجدوا أن الإنسان عاش ملايين السنين بدون هذه
الأنظمة الحديثة وكان يجد مطعمه ومشربه وملبسه ومأواه
ولم يمت جوعاً أو خوفاً ..

وبعد فلنقرأ سورياً قول الله تعالى: «يا أيها الناس اذكروا
نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض
فأني تؤفكون» (٣ - سورة طهر) .

وإلى عباد الطاغوت سواء كان الشيطان الذي يدلمهم عن
طريق الحق الذي أخضعهم لمشيئته وإرادته التي سرطان ما نزول
لأوهي الأسباب .. وإلى من ألغوا عقولهم فعبدوا بعض
مظاهر الطبيعة التي هي من خلق الله نسوق قول الحق تبارك
وتعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأتوا إلى

الله لهم البشرى » .

وقوله تعالى : « وله ما فى السموات والأرض وله الدين
واصبأ .. أفغير الله تتقون » . (سورة النحل - ٥٢)

وقوله : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات
والأرض طرعاً وكرهاً وإليه يرجعون » . (آل عمران - ٨٣)
وقوله : « ان الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك
الدين القيم » . (يوسف - ٤٠)

وأخيراً فإنه لن يصل إلى حقيقة الدين إلا من وجد
الإيمان إلى قلبه سبيلاً .. والإيمان ثمرة من ثمار البحث المختص
من الحقيقة وهو كما قال الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه
عليه : « ليس الإيمان بالتمنى .. ولكن ما وقر فى القلب وصدقه
العمل » .. ولنسمع معاً إلى قول الشاعر الهندي الذى يهتف
وسط طوائف متباينة العقائد منادياً أهل الإيمان الصحيح
بقوله :

إذا الإيمان ضاع فلا حياة ولا ديناً ان لم يحيى ديننا

ولكى نعرف ذلك بقيتاً علينا أن نخطو الخطوات التالية:-

حول الخلق

تمشياً مع فكر الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما يرون ولا يتقنون إلا بما يجربون ونحن نعتقد حواراً حول نشأة هذا الكون وكيف وصل إلى هذه الصورة القريبة من الكمال شكلاً وموضوعاً .. نبدأ من حيث انتهى العلم بأبحاثه إلى أصل هذا الوجود وكيف تكون ثم نرجع إلى الوراء حيث بدأ الفكر الإنسانى يبحث عن حقيقة ذلك المجهول الموغل في الغموض .

فإذا قال الماديون ان الكون أزلى ولا موجد له فإن العلم يقول لهم على النقيض من ذلك .. ان الكون لا يمكن أن يكون أزلياً حيث أن الحرارة دائماً في حالة حركة وانتقال بطرق مختلفة حواء بالأشعاع أو بالحمل أو بالاتصال من الأجسام الحارة كالشمس أو باطن الأرض أو جسم ساخن إلى الأجسام الباردة التي لم تكسب حرارة بعد ومنها سطح الأرض والماء

والهواء... الخ... بهذا لا يمكن أن يكون الكون أزلياً وهو
دائم التغير والتقلب بين الحرارة والبرودة... بل والزوال إلى
حد يقرب المادة من الفناء... فهذه أجسام تنصهر... وهذه مياه
تتبخر... وذاك هواء يحترق... واذن فلا بد من البحث عن
الازلية في غير هذا الكون.

كذلك وإن العلم أثبت أن عمر هذا الكون خمسة بلايين
سنة وهذا يعني أنه ليس أزلياً.

وشهد شاهد منهم هو العالم الروسي مندليف الذي انتهى
في أبحاثه عن خواص العناصر الكيميائية بعد ترتيبها في جدول
ترتيباً دورياً طبقاً لتزايد أوزانها الذرية. أن للعناصر التي تقع
في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة متشابهة الخواص... ولا
يمكن أن يكون ذلك لمجرد الصدفة ولكن وراء ذلك ترتيب
وتوجيه لا يمكن تجاهله وإن لم يكتشف وجوده الحسى.
وقد رأى علماء الفلك أن الأرض وجدت بعد نشأة الكون
ومنذ بلايين سنة من السنين... والبرمائيات وجدت بعد ذلك... .

ووجدت، بعدها الثدييات . . . وكان بعدها خالق الإنسان . . . هذا هو ما جاء في كتاب تاريخ الأرض لجورج جامبو .

وقبل هذه الأبحاث العلمية وما توصلت إليه من نتائج مقبولة عقلاً أشار القرآن الكريم في آيات عدة إلى نشأة الكون وبعض تطوراته فجاء في الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ من سورة الأنبياء قول الله تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناها وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون » وجعلنا في الأرض رواسي أن تُميد بهم وجعلنا فيها فجاًجاً سبلاً لعلهم يهتدون » وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون .

والتي عرفت فيما بعد بنظرية السديم أو الانتشار والتي تعني أن السماء والأرض كانت كتلة واحدة عند بدء الخلق ثم انفصلت عن بعضها مكونة تلك العوالم في السماء والأرض . وكذلك قوله تعالى : « قل أنتم لعكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلوا له أنداداً ذلك رب العالمين » جعل

فيها رياس من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة
أيام سواء للسائلين • ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها
والأرض ألتيا طوما أو كرها قالتا أتينا طائعين • فقضاهن
سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينها السماء
الدينا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم • (٩-١٢)
سورة فصلت)

وقوله تعالى : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في
الأرض رياس أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا
من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » • (١٠ -
سورة لقمان) .

وقوله جل شأنه : « الله الذي خلق السموات والأرض
وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه
من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون • يدبر الأمر من السماء إلى
الأرض ثم يهرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون •
ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم • الذي أحسن كل شيء

خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين • ثم جعل نسله من سلالة
من ماء مهين • ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع
والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون. (٤-٩ سورة المجدة)
وهكذا بدأ الخالق بإيجاد سر الحياة وهو الماء الذي خلق
منه الحيوانات جميعها .

والإنسان هو الكائن الوحيد الذي عرف هذه الكائنات
وجرى شوطاً بعيداً في البحث عما وراءها من أسرار التكوين
والغاية من وجودها والنافع منها والضـرار وبعض أسرار
حياتها أو موتها . فكيف عرف أصل وجوده والغاية منه .
ففي منتصف القرن التاسع عشر تقريباً بدأ العلماء والباحثون
يفكرون في حقيقة أصل الإنسان وسر وجوده . . وراح
الرحالة يجهزون الاقطار فيرون سلالات متباينة تنتمي إلى هذا
الكائن العاقل المفكر ولكنهم لم يصلوا إلى أكثر من الظواهر
التي تحيط بحركاته وسكناته وألوانه ولغاته . . إلى أن توصل
الإنسان إلى علم الحفريات فراح ينقب عن أقدم السلالات التي

ينتمي إليها هذا المخلوق العجيب .. ومن هنا بدأ العالمساء
يختلفون على بعضهم .. فأخوان الصفا يقولون بوحدة الكائنات
الحية جميعها .. وأنه لا يفصل بين عالم الحيوان والنبات والجماد
إلا وحدة انقلابية دقيقة .. وإن هناك حلقات تصل بين أرقى
النسب وأدنى الحيوان وبين أدنى الحيوان وأرقه .. وأن
الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضواً لا يحتاج إليه في وقت
جلب المنفعة أو دفع المضرة .. ويمثل هذا الفكر كانت نظرية
النشوء والارتقاء التي نادى بها داروين والتي زعم فيها أن
الإنسان من فصيلة القرود .

ويوضح ابن مسكويه الفيلسوف والعالم الإسلامي هذا
الموضوع بأكثر من ذلك بحثاً واستقصاء .. فيبدأ بالنباتات
التي لا تحتاج إلى بذور لعنت والتي لا تمتاز عن الجماد إلا بما
أسماء «أثر النفس» أي الحياة .. ثم يتدرج مرتبة بعد أخرى
حتى يصل إلى الأشجار الكرمة .. ثم يتحدث عن نشوء
الحيوان .. ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان .. الذي

بحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ويشبهه من غير تعليم كالقرد
وما أشبهها .. وتبلغ من ذكائها أن تستكفي من التأديب بأن
تري الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير أن تحوج الإنسان
إلى تعب بها ورياضة لها .. وهذه غاية أفق الحيوان التي
تجاوزها .. وقبل زيادة بسيرة خرج بها عن أفقه وصار
في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات
التي يستعملها والصور التي تلائمها .. فإذا بلغ هذه الرتبة تحرك
إلى المسارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات
ومواهب من الله عز وجل ..

ووقف العالم الفرنسي كوفيير موقفاً مضاداً لأبحاث
داروين وقرر أن كل نوع من الأحياء خلق مستقلاً .. وأن
الأنواع القديمة كانت تهيد ويحل محلها خلق جديد أرقى ..
وإذا سئل كيف تفسر اختلاف الأحياء القديمة التي كانت تعيش
في العصور الجيولوجية السابقة عن الأحياء الأحدث قال بكل
بساطة أن كارثة أو سلسلة من الكوارث كانت تحل بالأرض

فتبيد الخلق القديم لكي يحل محلها خلق جديد وهكذا عَصراً
بعد عصر .

وكان للعالم الأمريكي كروب دور كبير في البحث عن أصل
الإنسان فتوصل إلى أن الإنسان أقرب ما يكون إلى الحيوانات
التي سبقتة وأنه يعتبر أرقها بما امتاز به من ذكاء وقوة
في التفكير الذي مصدره العقل . . وكل هؤلاء لم يصلوا إلى
حقيقة أصل الإنسان . . وليس سوى الكتب المقدسة وهي
كلام الله العليم الخبير والتي تحكي قصة الخلق وخلق آدم .

يقول الله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين *
ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا
العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه
خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٢ - ١٤ -
سورة المؤمنون) .

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث بشأن خلق الإنسان من
طين . . إذ أنه بتجليل رفات الآدمي بعد موته وجد أنها

تحتوى على جميع عناصر الطين التى أشار القرآن الكريم إلى أنها
هناك تكونه . . .

وهذا القول الكريم ساقى لأفوال العلماء والمحدثين بثلاثة
عشر قرناً . . . مما يجعلنا نقف عند حدنا مبهورى العقل خاشعى
الفكر لما يحدثنا به الله فى كتابه عن خلقه صغيره وكبيره
وعن ملكوت السموات والأرض التى عاش الإنسان قروناً
هديدة منذ خلقه الله وسخر له الكائنات يفكر ويتصور
يفكره المحدود وعلمه القليل أنه يستطيع أن يحيط بهذا الكون
الطائل . . . وما هو بمقتطع إلا بما شاء الله .

ولننضم سويًا إلى لعبة استخلاف آدم فى الأرض .

الكائن المستخلف في الأرض

استكمالا لما كتبناه عن خاق آدم وتوضيحا لمرتبته عن
سائر الحيوانات وأنه الكائن الأمثل بينها لا نجد أمامنا سوى
الفكر المحدود هو الذي نستعين به على تحقيق ذلك . . والفكر
منذ القدم وهو دائب البحث عن هذه الحقيقة ولم يستطع أن
يعرف شيئا عن نفسه إلا عن طريق الرسائل السبائية التي
لم يصل قبلها مفكرون إلى مستوى يوصل لهذه الغاية سواء
بالفلسفة أو بالعلم والذي يدلنا عليه تاريخ الإنسانية . . إذ أن
الفلسفات بدأ ظهورها بعد ظهور الديانات بقرون عدة وأن
العلم الحديث ظهر بعد ذلك بكثير .

ويزعم الماديون أن الإنسان هو الكائن الأعلى في هذا
الوجود لما يمتاز به من التفكير الذي ينتهي إلى أعمال مملوءة
غاية في الدقة والفضخامة والإعجاز حتى لقد توصل إلى غزو
الفضاء وقد يصل إلى سكن السكواكب وربما تصوروا أنها
السماء التي تحدثت عنها الكتب المقدسة .

ولو كان الإنسان هو الكائن الأعلى لتفرد بالبقاء الأبدى
دون سائر المخلوقات ولهيمن على الكون المنظور وغير المنظور
هيمنة الإله الذي تحدث بكلماته في الكتب المقدسة عما خلق وعن
ملكوته الذي لا يعلم مداه إلا هو .. والإنسان لا يزيد عن
كائن حي خلقه الله وكرمه على سائر مخلوقاته .

ولم تستطع الفلسفات ولا العلوم بأنواعها المتباينة أن تثبت
عكس ذلك كما أوضحنا في الفصول السابقة ..

والإنسان لم يدرك كنه الكثير مما يحيط به من مخلوقات ولا
الحكمة في وجودها أو وجوده هو .. وما عرفه عنها وعن
نفسه استغرق في البحث عنه ملايين السنين .. وربما كان أول
ما عرف طعامه وشرابه .. فلم يدرك عن البحر أكثر من أنه
يمده بالأسماك التي يتغذى بها وكذلك الأشجار ذات الثمار .

وإن كان إنسان هذا العصر قد تغير عن إنسان العصور
السحيقة فعرف ~~كثيراً~~ من أسرار وحكمة بعض المخلوقات
بعد استخدامه لها في وسائل معيشته فإنه لم يعرف الكثير منها

إلا بعد ظهور الإسلام الذي أوضح كتابه المعجزة الغاية من خلق هذه المخاوقات .. فقال جل شأنه : « وهو الذي سيخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه واعتبروا من فضله ولعلكم تشكرون » (١٤ - سورة النحل) .

وقوله تعالى : « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً .. ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله .. كذلك يضرب الله الحق والباطل .. فإما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .. كذلك يضرب الله الأمثال » . (١٦ ١٧ - الرعد)
ولهذا فلا داعي للاضطراب وليس أماننا إلا أن تدخل إلى الحقيقة من بابها الكبير ..

يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً ملائكته :
« وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا

سويته وتنتخت فيه من روحي فظموا له ساجدين » .
(٧٢/٧١ - سورة ص) .

ولقد كان خلاق آدم من طين فلسفة تعلم الإنسان صنع ما يحتاج اليه في حياته الدنيـا من أشياء وتكوينها طبقاً لمراصفات يتصورها ذهنه لهذا الذي سيعينه . . كما أشارت الآية الكريمة « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » . . فكان خلقه على الصورة التي وجد عليها بعد ذلك حتى بعد أن أصبح ينشأ من نطفة في أطوار عدة إلى أن يصبح بشراً سوياً كما قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » .

وسمي آدم بخلق من أديم الأرض ولكنه لم يمنح كال التكوين إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه الدالـه على قدرته جل شأنه والتي ما تزال من غوامض الأسرار أمام العقل الإنساني مهما أوتي من علم ومعرفة . . وصدق الله العظيم إذ يقول : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما

أوتيتهم من العلم إلا قليلا » . (الإسراء - ٨٥) .

وهذا يعنى أن الإنسان نوع بعينه كرمه الله على سائر المخلوقات التى سبقتهم والتى تاتاه بما أتاه من العلم حتى أن الله سبحانه وتعالى أمر الملائكة وهم أشرف خلقه أن يسجدوا له وقد قرر ذلك التقدير والتكريم بقوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . وقوله : « واتقوا كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (الإسراء - ٧٠) وهذا ينفى ما ادعاه داروين فى أن الإنسان من فصيلة القرود والذي أكده هو بنفسه عندما اعترف بوجود حلقة مفقودة بين القرد والإنسان وهكذا حق للإنسان أن يتربع على عرش هذا الكوكب سيداً لساير ما فيه من مخلوقات . . . وقد نص القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم

مالا تعلمون . (٣٠ - سورة البقرة) .

وواضح من ظاهر الآية اعتراض الملائكة على وجود خليفة لله في الأرض وهذا يستوعب أمرين . . أحدهما أن الله أعطى مخلوقاته حرية التفكير والتعبير . . وثانيهما أن جميع مخلوقاته لم تؤتى من العلم إلا بالتدريج الذي تحتاج إليه في حياتها .

ونذكر ذلك من قوله جل شأنه : وإني أعلم ما لا تعلمون .
وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنزلهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . (٣٠/٣٣ - سورة البقرة) .

ويشدنا موقف إبليس من رفضه الاذعان لأمر الله بالسجود

لآدم والذي يفهم منه أن ما سجدى إبليس إلى هذا العصيان إنما هو تكبره على من اعتبره دونه واستخفافه به حين قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

وهذا أيضاً يعرفنا بأن الجن كانوا يعمرون الأرض قبل الإنس وأنهم لم يكونوا أهلاً لاستخلاف الله لهم في الأرض وكان حوار الملائكة مع الله بقولهم : « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . » إنما كان نتيجة فعلية لمسوها في الجن من قبل . . كما يشير القرآن الكريم إلى تسلسل خلق الجن والإنس واستعمارهم الأرض بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

وكانت الحكمة من الحوار الذي أجراه الله مع ملائكته بشأن استخلاف آدم الأرض هي اظهار موقف الإنسان بعد ذلك من قضية القضاء والقدر . . وهل هو مسير أو مخير . . ؟

ففي الأولى إن الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن
من عوالم ومخلوقات هو الذي قضى وقدر ذلك . . وهو عندما
أراد انتفضت حكمته أن يجعل في الأرض خليفة له من صنف
جديد من المخلوقات لم يكن ليأخذ رأى ملائكته حائى لله
ولا أن يشرك معه في ملكه أحدا . . ولتقرأ معاً قوله جل
وعلا في هذا الشأن : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض
ولا خلق أنفسهم » .

ولئن كانت الملائكة قد اعترضت على استخلاف آدم
الأرض فإنما كان ذلك لحكمة بالغة هي أن يقفوا على حقيقة
أمرهم وهي أنهم لا يعلمون من أمر الله إلا ما يبلغون به كما
ورد في الحوار رداً على قولهم : « انجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ونحن نسيح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم
مالا تعلمون » .

وأما عن الأسماء التي علمها الله آدم فلا يعلم حقيقتها إلا
الله وإن آثارها لا تزال باقية في عقب آدم حتى تقوم الساعة

فما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه ولا مخلوق
يعيش في البحر إلا ونسل آدم ينطق باسمه وكأنه يعرفه من
قديم الازل .

وهذا ما كان ينبغي أن يسأل به آدم ليؤدي حق الخلافة
فيما استخلف .. وستعرف فيما يلي على أكثر من ذلك مما آتاه
الله آدم ونسله من علم ومعرفة .



العلم توجيه إلهي

فما أسلفنا تبين أن الإنسان هو الحيوان العاقل الذي يستطيع أن يستخر ماحوله ويسوس غيره من المخلوقات بما امتاز به من عقل مفكر منطلق إلى غيره من الكائنات يفهمها ويفيد منها .

ومما سبق أن أوضحناه في قضية الألوهية والخلق والمعبودات وجدنا أن الإنسان كان دائم التطلع إلى معرفة هذا الكون الهائل وما يكتنفه من أسرار وما وراءه من قوة دافعة مؤثرة في كل شيء فيه بما أودعه الله من علم كان العقل هو الجهاز الذي تلقاه ويصدره سواء كان إلهاماً أو وحياً .. موروثاً أو مكتسباً .. تلقيناً أو تحصيلاً ..

والعلم يأتي نتيجة للتفكير فيما يعامله الإنسان أو يتخيله .. وبذلك يكون التفكير الإنساني مزيجاً حدس ومنطق .. من الهام وتأمل فالكون في الواقع مزيج من غموض ووضوح فالوضوح يلتزم بالمنطق والغموض يتضح بالالهام .. ولذا

فإنسان يفكر فيما يراه وفيما لا يراه . . فيصل إلى ما يراه بما
يتصوره . مناسباً للشكل والمضمون . . وأما ما لا يراه
فيلقنه بالإلهام .

ومن الأمثلة المدالة على الإلهام ما نشاهده في كوننا الذي
يجمع بمجانب المخلوقات للحيوانات لغة تفاهم بها . . وكذلك
الطيور والحشرات والأسماك في البحار حتى نرى النمل وهو
في سبيل تحصيل قوته في الصيف لتخزينه للبيات الشتوي الذي
يمنعه المطر والبرد من الخروج من بيوته للقيام بهذه المهمة
الحיוية التي تتضمن الحياة أو الموت بالنسبة له . . وكذلك
نرى أسراب الطيور وهي تهاجر من بلد في أقصى الشمال إلى
أخرى في أقصى الجنوب وبالعكس وقد انتظمها موكب
منظم تحت قيادة أحدها . . وبالمثل أسراب الأسماك التي تجوب
البحار من منطقة إلى أخرى سعياً وراء طعامها . . ولعل في
التحل أكبر دليل على هذا العلم الملهم الذي به نظمت مملكتها
أروع تنظيم والنشأت وطنها في أبداع صورة واجل تنسيق . .
وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله تعالى :

« وادخلى ربك إلى النحل أن تتخذى من الجبال بيوتاً ومن
الشجر وما يعرشون . ثم كلّى من كل الثمرات فإراكى سبل
ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء
للناس . . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

(٦٨ / ٦٩ - سورة النحل)

وعندما اتجه العلم الحديث إلى البحث فيما يشير إليه قوله
تعالى « فيه شفاء للناس » وجد العلماء عجباً . . ففى عسل
النحل أو غذاء الملكة بما يحىى الخلايا الميتة ويعيد الشباب بعد
الكهولة . . وفى العسل بصفة مامة شفاء وائى شفاء لبعض
الادواء التى لم يجدوا لها بديلاً عنه . .

أليس من حقنا أن نطالب من أقنع بهذا أن يؤمن بما
جاء فى هاتين الآيتين من أن ما أوتيته النحل إنما هو من علم
الله والهامة .

وإذا أردنا أن نستعرض العلم كما املنا فلنقرأ معا
ما يدلنا بآية ذى بدء أن العلم كله من عند الله . .

قال تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » (٥ - سورة العلق)
وانطلاقاً من هذا القول الكريم نجد أن الله لم يردده إلى الله
الذي يقول :

« وسيع ربى كل شيء علما أفلا تتذكرون »

(٨٠ - سورة الانعام)

وقوله جل وعلا « انى اعلم غيب السموات والارض
واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٣٣ - سورة البقرة)
ومن العلم الملمم أو الموروث بالنسبة للآنتان يقول الله تعالى :
« ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير
صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون »
(٤١ - سورة النور)

ومن العلم المتحصل ما أشار اليه الله تعالى فى قوله :
« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون »
(٨٩ - سورة يوسف)

وهى مواجهة صريحة بشيء قد حدث ويعلمونه .

وهن العلم المنزل ما جاء في قوله تعالى بشأن السحر :
« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس
السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت
وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ..
فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين
به من أحد إلا بإذن الله » (سورة البقرة - ١٠٢)

وهو في هذه الحالة علم تلقين وتحصيل .
وبرينا الخالق العليم الخبير كيف يسلب نعمة العلم ممن
يشاء فلا يستطيع مخلوق ان يسترده منها أوتي من قدرة ..
يقول جل شأنه « ومنهم من يسرد إلى ارض العمر لسكى
لا يعلم من بعد علم شيئا » (سورة الحج - ٥)

وانطلاقا من هذا فتحن نقول بمفهوم الايمان الذي توصلنا
به إلى حقيقة الألوهية وما أوجده من مخلوقات ومن كونية
وما منحة هذه المخلوقات من أسرار وطباع وغرائز أن العلم
منة من الله منحها الانسان ليعكون سلاحه في ادارة هذه
الأرض التي استخلف فيها .. ونسأل الماديين الذين يقفون

على التقيض من ذلك هل في اسماء طائعتهم وقد توضيحوها إلى
بعض مكونات الحياة أن يخلقوا شيئاً مثلاً خلق الله فإن
كانوا قد عرفوا وتوصلوا إلى مكونات الخلية الحية التي هي
اللبنة الأولى في بناء كل كائن حي فهل يستطيعون أن يبنوا
هذه الخلية ثم يكوّنوا من بعضها مخلوقات يشكّلونها أشكالاً
متباينة من حيوانات أو طيور أو هوام ؟ ..

إنهم ولا شك عاجزون كل العجز عن الإجابة على هذا
السؤال برغم امتدادهم إلى معجزات العلم التي تربطهم بأسباب
المسماة وجعلتهم يطوون الأرض من أقصاها إلى أقصاها
ويعطون الهواء إلى طبقات الجو العليا ويسرون في الفضاء
سبحهم على الأرض وإلى نوء القرآن بها في قوله تعالى :
﴿ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم إن تنفثوا من أقطار
السموات والأرض فانفثوها لا تفتنون إلا بسلطان ﴾
(الرحمن)

وقوله : فلا تخفيم بالشفق .. والليل وما وسق .. والقمر إذا
انسق لتركن طبقاً عن طبق » (١٦ / ١٩ - سورة الانشقاق)

وأخيراً يعهدى الله هؤلاء الضالين بقوله جـل شانه :
« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . . إن الذين تدعون
من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم
الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . . ضعف الطالب والمطلوب »

إن الإنسان قد يستطيع أن يرمم هذه الحشرة الدنيئة
ويلونها بألوان تقارب ألوانها بعد أن يراها بالمجهر ولكنه لن
يستطيع أن ينفخ فيها من روحه لتحريك وتؤدي وظيفتها . .
وكنى بكل مكابر أن يقف عند هذا حسيراً .

وفي الكتاب القادم نوضح بعض الحقائق العلمية تفصيلاً
إن شاء الله .



الكائن الأعلى والى جود

ان التطور الحضارى الذى وصل اليه العالم الآن لم يبدأ من الصفر كما ذكر المفكرون .. ولكن الحضارة ونجذت مع هذا الكون وفوق كو كونا الذى نعلمه ربما منذ ملايين السنين كما يخبرنا علماء الآثار لهدى اكتشافاتهم المستمرة سواء كانت عن طريق التنقيب والبحث أو جاءت عفوية نتيجة للتغيرات الجيولوجية المستمرة والمفاجئة .. وان الانسان القديم الذى اعتبرناه أول بان للحضارة فى وديان الانهار لم يبنها دون فكر وانما أنشأها على نمط سابق .. فالاكواخ والبيوت التى أقامها مأوى له هو تطوير المقارن والكهوف التى وجدت فى الطبيعة واتخذها مأوى له قبل نزوحه إلى وديان الانهار .. والانهار وهى مسرح الحضارة الاولى كانت من صنع الله الذى سخرها كقوله .

« الله الذى خلق السماوات والأرض وانزل من السماء ماء

نأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسيخر لكم الفلك لتجري في
البحر بأمره وسيخر لكم الأنهار . وسيخر لكم الشمس والقمر
دائبين وسيخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. ان الإنسان لظلوم كفار »
(سورة ابراهيم - ٣٤/٢٢)

كذلك فإن المعابد كانت وليدة التفكير في خالق هذا
الوجود أو الكائن الأعلى .. وهو الله .

ومن هنا فإن نظرة منصفه خالية من أى لوثة فكرية إلى
ما في الكون من بدائع الصنيع التي يتم بها كالبهار وما
احتوته من غرائب . والسماء وجمال زرقتها وشفافيتها وما زينت
به من كواكب ونجوم .. وكالجمال وشمسها وجمال سفوحها
إذا ما اكتمت بالخضرة والازهار والورود وضياف الأنهار
إذا ما فرشت بالبسط السندسية وزر كشت بأبدع الألوان ..
والحدائق الغناء .. والأشجار العملاقة التي تشبه المظلات
تارة أو المآذن السامقة تارة أخرى .. كل تلك كانت نماذج
احتذاها الإنسان في صنع حضارته .

وعلى هذا كانت الحضارة املاء مما خلق الله على الفكر
الانسانى واعمالا للعقل فى صنعها .. فإذا كان « كارل ماركس »
يقصد بقوله « عقل الانسان ليس هو الذى يخلق له طراز
معيشته .. وإنما طراز المعيشة هو الذى يخلق للانسان عقله
وفكره » ما وضحته فكان أجدر به ان ينوه بالخالق الأول
لكل شئ فى هذا الوجود بما فيه العقل البشرى الذى استنبط
به هذا التفكير .. ولو عرف ان الانسان لا يميزه عن سائر
الحيوانات إلا العقل الذى به امتدى إلى هذا التفكير هو
وأمثاله لآمن بما قال الله عن العقل وانطق به سيد الخلق
محمد صلى الله عليه وسلم بالحديث القدسي الذى يصف العقل
بأنه أعظم ما خلق الله إذ به يعطى وبه يأخذ . ولو قرأ قول
الله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ..
فأت تكفروا بالأسحق بكونوا مؤمنين . وما كان لنفس
أن تؤمن إلا بإذن الله .. ويجمع الرجس على الذين
لا يعقلون . قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ..
وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون

إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم .. قل ؕ انظروا إني معكم
من المنتظرين . ثم تنجي رسلنا والذين آمنوا .. كذلك حقاً
عابنا نبيج المؤمنين • قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من
ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله
الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين • وإن اقم
وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين • ولا تدع من
دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من
الظالمين • (١٠٦/٩٩ - سورة يونس)

لما ادعى ما ادعاه من باطل ولا انكر خالق هذا الوجود..
ولعرف أن الكون مسير بحكمة أزلية لا يعلمها إلا الله الذي
سخر كل ما فيه كما جاء في قوله تعالى : « إن الله فالق الحب
والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .. ذلكم
الله فأنى تؤفكون • فأنى الاصبح وجعل الليل سكناً
والشمس والقمر حسباناً .. ذلك تقدير العزيز العليم • وهو
الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد

فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذى الشاكر من نفس
واحدة فستقرر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون *
وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء
فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكيا ومن النخل من
طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان
مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا اثمر وينعه .. إن
فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * (سورة الأنعام - ٩٩/٩٥)

ولنسبوا كل شيء فى هذا الوجود إلى خالقه كما ينسبون
كل فكر إلى مفكره وكل صنعة إلى صانعها .. ولكنها لاتعنى
الابصار .. ولكن تعنى القلوب التى فى الصدور .

وهذا الفكر المادى يسير باتباعه الامعات فى دروب
سحيفة لا تفضى إلى غاية تفيد منها البشرية كما يدعون .

وان الحضارة منذ نشأتها الاولى قامت على حرية الفكر
والرأى .. حرية الحياة للانسان العاقل المدرك لما ينفعه
ويضره .. الحرية التى عرف بها كيف يبنى الحياة ويسخر

ما أعطاه الله من عناصر ومسود ضرورية لوجوده . .
فكانت الحضارة ان يحافظ على مياه الأنهار بالسدود والخزانات
وأن ينظم توزيعها وأن يصلح الأرض ويستغلها احسن
استغلال وأن يقيم المذشآت العمرانية لسائر الأعمال . . وأن
يتبادل للنافع مع غيره بضوابط السلوك والقيم والأخلاق .

وليس الحرية إذا في حاجة إلى قوانين تحميها اكثر من
ذاك . . كما انها ليست كما يمتورها الفكر المادي ضمان لقمة
العيش . . إذ ان لقمة العيش كسفلها الله لكل كائن حي كما
نرى في واقعنا الذي نعيشه والذي يطابق قول الحق تبارك
وتعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » ويعلم
تستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » .

وقوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا
في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (سورة تبارك)
والحرية الحقيقية هي الكرامة الإنسانية التي يستمتع بها
الإنسان على سائر المخلوقات والتي جاء بها الإسلام « ولقد

كرمنا بنى آدم وملائكته في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً (سورة الإسراء).
ولو كانت الحرية كما يتصورون لكان السجين حراً إذ
أنه يجد للطعام والشراب في سجنه .

وهكذا سبق الإسلام جميع النظريات إلى مفهوم الحرية
الجديرة بالبقاء . والحضارة التي حررت العرب من البداوة
وانطلقت بهم إلى آفاق المصونة والكرامة والسيادة والرفعة
ووضعتهم في مكان الصدارة بين الأمم . . تلك الحضارة التي
خلدها التاريخ في الشرق والغرب وما تزال باقية يغترف العالم
من معينها . . ويقطفون من ثمارها .

ومن هنا فإن البناء الحضارى لا يقوم مادياً فحسب وإنما
يكون مادياً ومعنوياً معاً . . فالحضارة العمرانية إذا لم تؤنسها
الحضارة الفكرية فهي إلى زوال . . ومعنى هذا أن الحضارة
ما هي إلا نتاج الخصائص الإنسانية الفكرية والوجدانية
والسلوكية . . هذه الخصائص التي أوجدت التألف والتعاون
بين بنى الإنسان وقضت على مجتمع الغاب الذي اضطرب إليه

الإنسان في بدايته ثم أورثه أبناؤه . . وظل ذلك دهر
الجماعات في المجتمع القبلي ولم ينتهي إلا بعد أن تحضر الإنسان
وأقام الحكومات ووضع القوانين التي كان لها الهيمنة على
كافة شئون الحياة . . وكان ذلك أول معلم من معالم الحضرة
والتمدن الذي تحقق في ظله انطلاق الفكر الإنساني الخلاق
لا يتكامل جوانب الحضارة بالفكر الديني والفنون والعلوم
والتربية والتعليم . .

ومن أجل ذلك فقد جعل الإسلام كتاب الحضارة
مفتوحاً ليسجل فيه الإنسان ما يجريه الله على يديه من منافع
للناس فبارك الله القائل : « ويخلق ما لا تعلمون »

ومن هنا يمكننا أن نقول بأن الحضارة الحديثة لم تكن
إلا حلقة في سلسلة الحضارات التي سبقتها . . سواء تلك التي
أنشأت على يديها الميكانيكيات أو ولد في أحضانها البخار أو
اكتشف بين يديها المارد العملاق المسمى بالكهرباء . . وكل
تلك المخترعات أسهمت في توفير وسائل المعيشة للإنسان
وتيسر سبل الحياة الكريمة له أيضاً .

وستظل الحضارة هدف الإنسان الذي تنحلي عن أنانيته
وعرف حقيقة رسالته السامية وهي التعايش مع اخوانه في
الإنسانية .. وإذا كان هذا هو الهدف والغاية لما أسر
الطريق إليهما .. وما أجدر أن نقرأ معاً قول الله تبارك
وتعالى : « قال لمن ربكما يا موسى » قال ربنا الذي أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى » قال فما بال القرون الأولى » قال عليها
عند ربى في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » الذي جعل لكم
الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء
فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » كلوا وارعوا أنعامكم
ان في ذلك لآيات لأولى النهى » . (٤٩ / ٥٤ - سورة طه)
ثم نتدارس بلا تعصب كافة المذاهب الفكرية التي جاءت وليدة
البحث عن كيفية ضمان حقوق الإنسان المشروعة في كل وقت
ومكان وتحت أى ظروف .

مما عرفناه تاريخياً أن حقوق الإنسان في المصور الوسطى
كانت تتباين تبعاً لعبسائين الوضع الاجتماعى للفرد حتى لقد
وضعت نظريات وقوانين جائرة بالنسبة للسواد الأعظم من

الشعب .. ثم تطورت تلك القوانين تدريجياً حتى توصلت
الأمم المتحدة إلى وضع صيغة نهائية لضمان حقوق الإنسان ..
واشتركت في وضع هذه الصيغة كافة الدول على اختلاف
مذاهبها الاشتراكية والرأسمالية وغيرها .. قبل أنوا بحديد
عما دعا إليه الدين . وبالذات الاسلام . . لا بالنسبة لحقوق
الفرد فحسب .. بل وأيضاً بالنسبة لحقوق الدول مجتمعة ..
فإنه كما ألقى مسئولية ضمان الحرية الشخصية على عاتق
الحاكم .. « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

فإنه أمر الجماعة الانسانية بحماية الدول من بعضها ..

« وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلاهما بينهما ..
فإن بنت إحداهما على الأخرى فقالوا التي تبغي حتى تفيء إلى
أمر الله . : فإن قامت فاصلاهما بينهما بالعدل واقسطوا ..
إن الله يحب المقسطين » .

بل وعرف الناس جميعاً أنهم من أصل واحد ويجب أن
تتغلب النزعة الانسانية على التعصب القبلي .

يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل ليعرفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وقبل ذلك وبعد ظهرت مذاهب وأفكار إصلاحية
للاخذ بيد المجتمعات المتخلفة .. كما أسلفنا .. وكان العصب
ظاهراً بين أبناء كل أمة اعتنقت مذهباً ما .. سواء كان
نابهاً منها أو مستورداً من غيرها .. ولسكنه لم يلبث أن
طمسته الأيام عند ظهور تيار فكري جديد يتنافسه أو حتى
يستمر تحديناً له إذ يقوم هذا المذهب الجديد على أبقاضه .

ومن غلط الرأي أن تولي أي أمة مفكرها الاعجاب
وتغبط غيرهم ممن سبقهم وكان لهم فضل كبير عليهم بما
قدموه للإنسانية قبلهم من فكر وعلم كان معينهم الذي نهلوا
منه واغترفوا .. فيضعون موضع الشاعر العربي أبو العلاء
المعري الذي اغتر بفكره وعلمه فقال .

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لأت بما لم تستطعه الأوائل

فإن لكل جيل سبق بصيات في أفكار الجبل الذي بناه ..
وهكذا الحياة دوميك .. فالفكر الإنسانى أشبه بالزراع يفرس
فينمو ويثمر ثم يحصد ليفرس غيره فينمو ويثمر ثم يحصد
وهلم جره ..

ومن يتتبع خطى الحضارة يجد أنها لم تبدأ في هذا القرن
العشرين .. وإنما قبل ذلك بقرون عدة .. وما انتهت إليه
اليوم ان كنا نراه ازدهاراً لها .. فذلك في نظرنا .. وغداً
قد تزدهر الحضارة أكثر فأكثر على يد من يختلفوننا .. وعندئذ
ينظرون إلى حضارتهم كعظمتنا إلى حضارتنا . وقد يكون
المان الغد أسمى تفكيراً وأرق عاطفة وأرق وجداناً فيبوء
الحياة الطيبة له ولغيره دون استخدام العنف الذى ترك بصماته
في مبادئ نهضات هذا العصر وثوراته من أجل حياة أفضل
يدعى فيها أنه يسعى لتحقيق الحرية والديمقراطية والوحدة
الإنسانية كما أراد أفلاطون الاغريقى فى العصور القديمة أن
يصنع ذلك في جمهوريته .. وكما شاء الفارابى .. الفيلسوف
المسلم .. أن يحقق ذلك فى مدينته الفاضلة فباء بالفشل ..

وهؤلاء سبقهم مفكرون وفلاسفة ومصلحون
وحضارات .

فالحضارة اليونانية أفادت من الحضارة المصرية القديمة . .
والعرب أفادوا من الحضارة اليونانية . . ثم أمدوها مرة
أخرى هي وأوروبا بنتائجهم الحضارى الرائع الذى كان
كالبحر الزاخر غمر الوجود بفضلها واعترف به كل مفكر
منصف فيما تلام من عصور .

لهذا أكثر من ألف سنة على ظهور الاسلام طفر المسلمون
طفرة علمية جبارة وهم أبناء الصعراء الذين لم يأتوا قسما من
العلم والثقافة قبل ذلك . . فأثروا الحياة بالفكر الانسانى
المخلاق وبالعلوم الانسانية التطبيقية كالطب والهندسة والفلك
والكيمياء وغيرها من العلوم التى نهضت بالحياة فى شتى مناحيها
والتي اسعد الغرب نهضته الحضارية بعد ذلك فأشرق بها فجر
مجتمعهم الجديد بعد ظلام خيم عليهم آلاف السنين . . ولا
ينكر العالم كله فضل هؤلاء العرب المسلمين على العالم . . إذ

أن حضارتهم ما تزال آثارها باقية توميء إليهم بالإجلال
والإعظام والتقدير والاعتراف لهم بالسبق في ميادين التقدم
في إرساء قواعد كافة حضارات الأمم التي تلهم وأخذت
أصولها عن حضارتهم .

وكنهاج لهذا التقدم العالمي نذكر أنه في القرن الخامس
الهجري ألف أبو القاسم كتابه الخلال في الجراحة . . وهو
أول مرجع لها تقريباً . . وطالج البيروني دوران الأرض
حول الشمس . . واكتشف ابن الهيثم قوانين الإبصار . . كما
كان له سبق في الشروع في اختراع أجهزة التصوير . . كما
ظهر في هذا العام الرئيس ابن سينا الذي طبقت شهرته
الآفاق في مناحي العلم والفكر وهو لم يتجاوز العشرين ربيعاً
بكثير . . وغيرهم من علماء المسلمين الذين أرسوا قواعد
الحضارة الروحية والمادية التي استمدوها من علوم القرآن
الكريم والفكر الإسلامي . هذا الفكر المعطور الخلاق الذي
لا ينضب معينه ولا تذبل ثماره والذي ما ظهرت نهضات ولا
لمع بريق مذهب اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي إلا وكان

انعكاساً لبعض أشعة شمسها التي تجري لمستقر لها وإن تنطفيء
جذوتها لأنهم من نور الله القائل : « يريدون ليطفئوا نور
الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

والشعب المتمسك بقيمه الحضارية وما أوتيها من مبادئ
سامية تعتبر قيراساً لحياة الإنسانية قوامها للعدل والمساواة
يستطيع أن يحقق العيش الكريم له ولغيره من شعوب الأرض .
فهو صاحب قدرة ومسئولية . . وإيست الثورات الدموية ولا
الانفعالات المجنونة الطائشة التي لا تلبث أن تستبدل الحرية
بالقيود والأغلال والديمقراطية بالبغي والاستبداد . .

ونظرة مقارنة بين ما صنعتها الشعوب الحرة من حضارات
وما تقيمه الشعوب المكبلة من نصب تذكارية لضحايا الظلم
والبطش ترينا الفرق الشاسع بين حياة تزخر بالخير وترفل في
الأمن والسيادة وأخرى تعتبر في غياهب الظلمات .

ونظرة أخرى إلى خريطة العالم في الشرق والغرب توضح
لنا أكثر وأكثر أن الشعوب التي بنت نفسها بنفسها دون

أرصباء عليها بلغت درجة من التقدم الانساني اجتماعيا
واقتصاديا وسياسيا ما لم يبلغه نظاراتها بحيث أصبحت تستطيع
أن تمد يد العون لغيرها من الدول المتخلفة لتلحق بركب الأمم
الناهضة .. مكش تلك التي تسعى وراء امتصاص خيرات
الأمم النامية لتسد حاجتها دونما وازع من ضمير أو خلق ..
وناقده الشيء لا يعطيه ..

ولهذا فإن النظريات والمذاهب الإصلاحية التي غزت الشرق
الأقصى وأوروبا الوسطى وافدة عليها من أوروبا الشرقية
ما هي إلا سراب بقلعة يحسبه الظمآن ماء حق إذا جاءه لم يجد
شيئاً ووجد الله عنده .

إن الباحث المنصف وراء هذه النهضة يجد أن النظرية
الإسلامية غنية بمقرمات الحياة وركائز القوة ودعائم العمران .
ولن يبلى صرحها أو يبدد .. وإن تقرب شمسها أو تزول ..
ذلك لأنها سنة الله في الأرض .. وإن نجد لسنة الله تبيلا ..
إن الإسلام الذي جاء بتشريع مبادئ لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه برغم أنه جعل لكل شيء ضوابط
ومقاييس ونظم قوانين فإنه لم يترك الأرض للتصوص لتنفذه
تلقائياً .. وإنما جعل الهيمنة فيه للضمير الحى ..

« [إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن] » .

وهذا يعنى أن آفة المجمع .. أى مجتمع .. مهما كثر
علماءه ومنكروه وقادته ومصلحوه إنما تانى بالدرجة الأولى
من عدم تقدير المسئولية والعكس صحيح .. ومثالا على
ذلك أن شريعة الاسلام عندما طبقت تطبيقاً صحيحاً فى عهد
الخلفاء الراشدين حتى عهد خامس الخلفاء عمر بن عبدالعزيز ..
أى قرابة ثلاثمائة سنة .. شاع العدل وعم الأمن وقام المحم
دون أى ثورة إصلاحية أو اتجاه إلى نظام جديد يحمى النظام
الاسلامى .. أما عندما استورد المسلمون قوانين وشرائع
وضعية فقد فتحوا الأبواب والنوافذ لرياح السعوم التى تحمل
جراثيم الأمراض الاجتماعية الخبيثة التى نخرت فى عظام الأمم
فأدت بها إلى ضعف اتهم زده دعاة الإصلاح اينصبوا أنفسهم

أطباء على من دواؤهم في أيديهم فكانت المذاهب الاقتصادية
من اشتراكية قايية أو تعاونية أو متعارفة.. ولم تستطع جميعها
حتى اليوم أن توقف زحف هذه الأمراض الخطيرة فاتجهت
إلى صنع مييدات للبشرية يتنافس فيها الشرق والغرب باسم
حماية السلام العالمي ..

« كالتى نقضت غزلها من بعد قوة إنكاسا » .

ومن خطل رأى مرة أخرى الاعتقاد بأن أدوات
التدمير والهلاك والحرب يمكن أن تحصى السلام أو تقيم
للتعايش السلمي بين العالم أو أن الأمم التى تملك هذه الأدوات
المدمرة تملك أسباب القوة .. لا .. انها تملك أسباب فتاتها ..
ومثلها فى ذلك مثل قاطع الطريق فإن نهايته محتومة ..

وعلى هذا فإن الأمم لا تفضل بعضها إلا بما تقدمه للانسانية
من حضارة نافعة تستخدم الناحية الروحية فيها الناحية الأخرى
المادية ويكونان معاً الجناحين اللذين تهاق بهما الانسانية فى
مساء الرقى والتقدم ..

فبينما يهـذب الجانب الروحي النفس البشرية ويقوم
سلوكها إلى الأفضل وينمي فيها روح التأخي والايثار
والتعاون لصنع الحياة الحرة الكريمة .. يقوم الجانب المادي
بالتفاني في استنباط وسائل العيش الطيب بتسخير الأرض
والفضاء والبحر لخدمة الإنسانية وهو ما تسعده كافة
المذاهب الاجتماعية والأفكار السائدة في القديم والحديث مهما
تغيرت الأسماء والمسميات وتشرعت أساليب الدعوة إليها
وتحوير أهدافها ..

وليست الثورات التي هبت في كل بقعة من هذه الأرض
إلا انتفاضات لتغيير أسلوب توزيع وسائل العيش بين الناس
أخذاً وعطاء تلقى بعد ذلك إلى ما قد يسمى بالتغيير الثوري
وما هو إلا تغيير جلد الثعبان ليعلن مع المرحلة التي يستقبلها
من حياته .. إذ أن تغيير القديم من طبيعة الحياة دائماً ..
والأهم من هذا وذلك أن يكون التغيير للصالح العام فعلاً ..
وإذا كان الأمر كذلك فإنه ان يجد مقاومة مستمرة قياساً

على ما حدث من ثورات على رءس أنبياء الله ورسله ومن جاء
بعدهم من مصلحين . .

وينتهي من هذا إلى أن الثورات التي لم تحقق الغاية من
قيامها إنما تنتظر أقول نجما لسبب أو لآخر لأنها لم تنشئ
حضارة نافعة بهرع إليها الناس من كل حدب وصوب كما
حدث إبان ظهور الإسلام حيث مع شمل العرب في أقل من
ربع قرن ثم انطلقت حضارته ترث الامبراطوريات والممالك
في الشرق والغرب . . لا بالمؤامرات وحده السيف . . ولكن
بالعلم النافع والحضارة الزاكية التي من أول دعائها الحرية
والعدل والمساواة في الاخوة الانسانية كما ورد في نصوص
دستورها وقوانينها :

« إنما المسلمون اخوة »

« الاس سواسية كأسنان المشط » .

« لا فضل لعربي على أعجمي ولا لبيض على أسود »

« إلا بالتقوى » .

الدين قمة الحضارة

لقد ذهب الملحدون إلى القول بأن الدين من اختلاق
الإنسان تستر وراءه المفرضون من أصحاب المصالح والنفوذ
ليقهروا به الشعوب ويستغلوهم.. وقتهم أن الدين جاء ليعقني
الآخاء الإنساني والمساواة والمعدالة.. ويقضي على الظلم
والتعصب الأعمى لبعض الأجناس دون البعض الآخر كإنص
كتاب الإسلام على ذلك بقوله تعالى : « يا أيها الناس إنا
خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكما قال رسول الإسلام ونبيه سيدنا محمد ﷺ في خطبته
يوم الوقوف بعرفة، في حجة الوداع : « أيها الناس .. إن
ربكم لواحد وإن أباكم لواحد .. لا فضل لعربي على أعجمي
ولا لأبيض على أسود إلا بالقوى .. كلكم لآدم وآدم
من تراب » .

وانطلاقاً من هذا التشريع الإلهي يمكننا أن نقول : —
 عندما درج الإنسان على وجه هذه البسيطة بدأ يتعرف على
 ما حوله من أشياء سواء كانت متحركة أو ساكنة . . وقد
 عرفنا القرآن الكريم بأن الله العظيم الخبير قد علم الإنسان
 ما لم يكن يعلم كما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة : « وعلم
 آدم الأسماء كلها » . فظل يحترق ما أودعه الله خزان فكره
 من هذا العلم فيعرف مسميات الأشياء التي يراها ويبقى أن
 يفكر في كنهم وما خلقت من أجله باحثاً فيها عن الخير الذي
 يفيد ومذكراً كيف يتقى الشر الذي تسعوه . . وظل كذلك
 ومعه هذه الأشياء مستغرق عليه فراح يبحث عن السر الأكبر
 وراء هذا الملكوت العظيم . . وهنا بدأت مرحلة الفلسفة التي
 قضى فيها الإنسان ردهاً من الزمان هيأ الله فيها للإنسان
 السبيل إلى معرفته جل شأنه من خلال هذه المخلوقات التي تدل
 على عظمة الصانع وهذا الوجود الذي يصور قدرة الواحد
 مطلق الكمال والوجود جل جلاله .

وبعدها تبق المرحلتين جاءت المرحلة الهامة في حياة

الإنسان ألا وهي مرحلة الدين حيث اصطفى الله من آدم
وذرئته أنبياء ورسلاً كما قال تبارك وتعالى « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » : وكما
قال : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمُ النَّبِيَّةَ
وَالْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ »

ولقد كانت الحضارة القديمة عملاً بدائياً إرتكز على الفكر
في طفولته والفطرة في مهدى حق نهاية عصر الفلاسفة حيث لم
يجنى الإنسان من ثمارها إلا النذر اليسير من العلم والمعرفة
التي لم تخرج عن دائرة التجارب التي ما تكاد تعرف حق تظهر
تجارب أخرى تلغيها .

وعندما اصطفى الله الإنبياء والمرسل أنزل من لدنه العلم
الذي لا ينضب معينه والفكر الثابت الذي لا يندسخ إلا بقوانين
مماوية . وعلى أساس معين من هذا العلم والفكر تمام بناء
الحضارة الشاخص سواء كان مادياً كالعمارة والهندسة والأجهزة
والآلات أو روحياً كالمبادئ والقيم وغيرها مما يحقق الأمن

والنظام ويوفر الرفاهية والخير ويقضى على الإثارة والحقد
والضغائن مما دياً للالسان الحياة الكريمة وجعله يستطيع
التعرف على الكثير من غوامض هذا الكون . .

فالشريعة اليهودية حققت بالقصاص الأمن والعدل
واحقاق الحق . . وحققت بالوصايا للعشر ما لم تحققه القوانين
الوضعية التي جاءت في ظل حكم الاقطاع .

والشريعة المسيحية التي جاءت تكملة للشريعة اليهودية
وتعديلاً لبعض نصوصها القاسية إذ دعت إلى المحبة
والسلام .

ولقد كانت الشريعة الإسلامية خاتم الشرائع فاشتملت
عليها وهيمنت على ما جاء فيها من قواعد ونظم وأحكام
وأنت بما تحتاج إليه البشرية لقيام نظام محكم ثابت لا يتغير
فقدمت للالسانية منهج حياة أقامت وتقيم عليه صرح الحضارة
الذي يزداد شموخاً ورفعة يوماً بعد يوم .

ولنقرأ معاً التوجيهات الإلهية التي كانت ركائز ناجحة
لإقامة حضارة إنسانية ظاهرة .

قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند
الله أتقاكم » .

« يا داود إن جعلناك خليفة في الأرض فاجزم بين الناس
بالحقي ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا
حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
وتدلوها بها إلى الحكام » .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح
لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم » .

« أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحفظنكم من بأسكم » .

« وَفَلَنَّا يَا نَجَّيَالِ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالْعَلِيزِ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ » .
 « وَلَسْنَا بِإِنِّ الرِّيحَ نَغْدُوهَا شَهْرَ ذُرَّوَاهَا شَهْرَ وَأَسْلَنَّا لَهُ
 هِنَ الْقَطَارِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ . . . يَعْمَلُونَ
 لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاكِيلَ وَجُجْفَانٍ كَالْجَوَابِ . وَقَدُورَ
 رَابِيعَاتٍ . . . »

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
 لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحُسْدَ فِيهِ بَاسٌ شَدِيدٌ
 وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ » .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ بِجُوعٍ
 وَبَيْعٍ وَصُلُواتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا أَمُّ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيُنصِرَنَّ
 اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

من اشعاعات هذه الآيات الكريمة من قول رب العزة جل
 شأنه نعرف كيف ظمت الحضارة وبلغت قمتها تحت راية الدين
 حتى ان حضارة الاسلام الزاهرة هي التي كانت بعثاً للحياة
 ولارتقاء بها إلى ما وصلت إليه من كشوفات علمية وتسخير

لما اكتشفه هذا الوجود من غوامض سواء كانت تحت الثرى
أو في السموات الملى فعبارك الله الذي علم بالقلم علم الإنسان
ما لم يعلم .

ولعل أول ما تعرف عليه الإنسان من معالم الحضارة من
الزراعة الذي اكتشفه نبي الله ادريس عليه السلام وكان
يدعى « إخنوخ » باللغة المصرية القديمة . . ولما جاء دور
الصناعة كان نبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام أول
من أمتها هذه الصناعة وتعلمها من توجيهات السماء ضمن
قوله تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله
الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

وهكذا كان الدور الرائد في الحضارة هؤلاء الأنبياء
الذين بعثوا برسالة الدين .

والحضارة في بدايتها كانت تقليداً لما رآه الإنسان في هذا
الوجود . . فقد انتقل من الكهوف والمغارات التي سكنها فترة
طويلة إلى الأكواخ التي صنعها من القش وأغصان الأشجار

والطين .. أو إلى ما أُلشأه من يـسـوت من الطوب اللبن أو
الاحجار حتى ارتقى بمكره إلى صنع القصور .. وكان هذا
الاستقرار دافعاً له لمعرفة الخلق العظيم وعبادته وإقامة المعابد
والهياكل لاداء هذه العبادة في عصر الفطرة إلى أن بعث الله
من بين هؤلاء المفكرين من بنى الإنسان أنبياء ورسلاً ارتفعت
بهم الحضارة طوراً بعد طور حتى بلغت ما بلغت من عظمة
وازدهار .. فصحرت المعابد التي كان يدخلها الإنسان راكعاً
إلى هياكل وكهائن ومساجد غاية في الضخامة والشموخ ..
وسبقها علم وثقافة أخذت بيد الإنسان من حياة الغاب إلى
الحياة التي نعيشها تحت أضواء الحرية والسيادة والكرامة
فكانت النظم العادلة التي حققت الخير والعدل والحب كما قال
الفلاسفة ومنهم أرسطو وأفلاطون من فلاسفة اليونان الذين
دعوا أحدهم إلى إقامة الجمهورية ثم ابن سينا وابن رشد
والفارابي صاحب المدينة الفاضلة وغيرها من فلاسفة المسلمين
الذين أضواء الله بصيرتهم بعلوم القرآن فخلقوا للإنسانية الخير

على بساط المساواة وتعت أجنحة الرخمة التي أرسل الله نبيها
 خاتم النبيين مصداقاً لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة
 للعالمين » . فحنت البشرية من ثمار حضارة الإسلام ما ترفل
 فيه من ثياب العزة والكرامة وما تنعم به من ثمار الحرية
 والإخاء الإنساني والمدل الذي عندما يثقل كمرى أنو شروان
 امبراطور فارس عنه قال انه أساس الملك .. والملك لم يستقر
 ويحقق أهدافه إلا على ركيزة من شريعة الدين التي هي
 شريعة الله .

وهذا بلغت الحضارة قممها في ظل الدين وكنف الوصايات
 السماوية .

خاتمة

بعد هذا العرض الموجز، وألحسوار السهل في تناول
الموسوع الذي خيرا الأذهان قبل بهمة خاتم النبيين وإمام
الموسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام لامتدوحة في أن
تتم هذا البحث بإشارة إلى بعض الحقائق العلمية التي تقف إلى
جانب الرسالات السارية مؤيدة ومحقة لقول الله تعالى :
« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم
أنه الحق » .

لقد حطمت الاكتشافات العلمية نظريات الماديين القائمة
على عدم اعترافهم بما لم يروا أو يحسوا .. فإن التنبؤ الرياضي
لم يكن قائماً على شيء مرئي أو محسوس .. ومع ذلك فإنه
توصل بهذا الاستنباط والتنبؤ إلى ما أصبح مرئياً ومحسوساً
كما حدث عند ما تنبأ العلم بمنطقة الرياضي بوجود نجم لم يكن
مرئياً وتحققت نبوءاته بظهور هذا للنجم بعد فترة تماماً كما

حدثت عندما أشارت الارهاصات إلى ظهور نبي أو وقوع
حرب أو غير ذلك مما سبقها من دلالات توحي اليها .

وهكذا يجب أن يعود الإنسان الثائ إلى عقله فيهدى بنور
الحقيقة التي أبرزنا كثيراً من الأدلة والبراهين الفلسفية والعلمية
والدينية عليها .. والله هو المهادى إلى سواء السبيل .. والله
غالب على أمره وإكن أكثر الناس لا يعلمون ..

ثم بحمد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير وإيماءة

لمضمون الكتاب ومحتواه ..

بقلم الأستاذ أحمد فوزي الصاوي

١٩١٠/٧/١٦

« واتقوا الله ويعلمكم الله » . صدق الله العظيم

وبعد ..

أرأيتم إلى غواص قيل له ان درة الدرر تقبض في أعماق
إحدى قيعان المحيطات فيغوص إليها دون استوائية هواء ثم
يطفو ثم يغوص ثم يطفو ليغوص في دأب ولا يسرد أنفاسه
حتى يكثر عليها.

أرأيتم إلى صائد أصر على اصطيد طائر محلق في
عنان السماء فائق في مرعته متعرج في طيرانه فيصطاده
بيديه .

أرأيتم إلى مؤمن يخوض وحده غمار معركة لقاء جيش
لجب فيسلم له الجيش مقهوراً .

أرأيتم إلى منازل للشيطان فيصمد أمامه متحدياً - فيحار
فيه الشيطان ويسقط في يده ويضطر إلى حيله التي تبيل
الفكر وتأسر العقل وتبطل الحس وتشعن النفس بالهواجس -
فينسد هو للشيطان حيله ويخسر له وساوسه وينعمه
إخاماً . .

إن الفواصص والصائد والمؤمن ومنازل الشيطان - هو الأمتاز
العالم العامل المفكر المثقف الكاتب الشاعر عبدالله أبو رواش
الذي تزود بالتقوى فخرته على البحث ومهدت له السبل
ويسرت له المسير وكشفت له الغوامض وأدنت له الخفايا

وجعلتها .. فأهداها لنا بين دفتي كتابه (الكائن الأعلى مطلق
الكمال والوجود - في الفلسفة والعلم والدين) .

هذا ولئن كان هذا الكتاب تدور أبحاثه حول الذات
الإلهية أو في مضمونها لتقريبها إلى الأفهام التي تقوم على
العقل وهو من خلق الله .. وأن العقول في سداجتها
وبساطتها تطالب برؤية الله وكيف؟ .. والعقول محدودة وكل
حواسها محدودة .. والله فريد الذات .. مطلق الأبعاد ..
مطلق القدرات .. مطلق الوجود .. مطلق الایجاد ..

هل رأى مزروع زارعه ؟ ..

هل رأى مصنوع صانعه ؟ ..

هل سمعت كلمة قائمها ؟ ..

هل أحاطت فكرة بتأقلاها ؟ ..

هل قرأت كلمة كاتبها ؟ ..

كيف يتأتى للحسم وعظم دم - ومنها يكون

الإنسان - أن تفكر .. أن تدبر .. أن ترى .. أن تسمع ..
أن تتكلم ! اللحم والعظم والدم كلها جماد .. وإذا فهناك شيء
آخر .. أنه الروح .. فيها ينتقل اللحم والعظم والدم من عالم
الجماد إلى عالم آخر .. إلى عالم الحواس .. عالم الوعي
والإدراك والابصار والسمع والشم والتذوق والإحساس ..

وهل رأى إنسان روحه ؟ .. بالقطع لا .. وهل
يستطيع إنسان أن ينكر وجودها في كيانه ؟ .. لو أنكرها
لكذبته من لحدوها وبعودها الأموات . أمن النطق بعد
ذلك أن نسلم بوجود الروح التي لا ترى ؟ .. ولا نسلم
بوجود مانحها وقابضها ! .

أنسلم بوجود الفعل وتنكر وجود الفاعل ! . وكيف
يسمحيل علينا رؤية الروح وهي في جسمنا .. ونحاول أن
نرى مبدعنا ومبدع الروح ..

إن حدائقنا إذا استوعبت الله في نطاقها فإن يختلف الله
عندئذ عن أي شيء يمكن أن نرى .. وبمعنى أوضح يمكن

هكذا تحديد مواصفات الله.. والله ليس كمثل شيء مما خلق..
إنه وراء كل وراء.. وراء أقصى مدى للسمع.. وأقصى
مدى للبصر.. وأقصى مدى الإدراك.. وأقصى مدى
للتخييل.. ثم أنه أقرب من أي قرب..

من حيث أننا فعل والله فاعل.. والفعل عمل والفاعل
عامل.. والفرق بين العمل والعامل هو الفرق بين الشيء
واللاشيء.. هو الفرق بين قدرة الإيجاد والتشكيل ثم قدرة
الإنهاء أو التبديل وبين عدم القدرة إطلاقاً.. وتلك هي
القاعدة التي تربطنا بالله سبحانه وتعالى.. فكل الكائنات فعل
يسير والله وجده هو الفاعل المطلق..

موضوعات الكتاب

- ١ - إلى رواد الفكر وعبيده .
 - ٢ - كلمة لا بد منها .
 - ٣ - من أوجد الكون .
 - ٤ - الله موجد الكون .
 - ٥ - الذات الإلهية .
 - ٦ - أين الله .
 - ٧ - لماذا الإله .
 - ٨ - ما هو الدين .. ولماذا ؟
 - ٩ - حول الخلق .
 - ١٠ - الكائن المستخلف في الأرض .
 - ١١ - العلم توجيه إلهي .
 - ١٢ - الكائن الأعلى والوجود .
 - ١٣ - خاتمة ..
 - ١٤ - تقرّظ وعرض لمضمون الكتاب وعنه وياته .
- بقلم الأستاذ أحمد فوزي الصاوي

مراجع الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الأحاديث القدسية والنبوية .
- ٣ - الكتب المقدسة .
- ٤ - الله ذاتاً وموضوعاً .. الاستاذ عبد الكريم الخطيب جزاء .
- ٥ - الله في الفلسفة والمسيحية .. عوض سمعان .
- ٦ - الماركسية والدين .. د. رشدي فكار .
- ٧ - الله والعلم الحديث .. الاستاذ عبد الرزاق نوفل .
- ٨ - الله والإنسان .
- ٩ - الله في الفطرة آل ياسين
- ١٠ - أصل الإنسان .. هـ . محمد السيد غلاب ،
- ١١ - مشكلة الألوهية .. هـ . غلاب .

- ١٢ - نظرات في القرآن .. للامام حسن البنا .
- ١٣ - العقائد الإسلامية .. للشيخ السيد سابق .
- ١٤ - الماركسية والإسلام .. د. مصطفى محمود .
- ١٥ - الله علماً وإلهاماً .. ابراهيم عبد الصبور .
- ١٦ - مكر .. ودين .. عبد الرزاق نوفل .
- ١٧ - جمهورية أفلاطون .. للدكتور عبد الكريم أحمد السكري .
- ١٨ - قادة الفكر .. للدكتور طه حسين .
- ١٩ - الموسوعة العربية الميسرة .
- ٢٠ - فلسفة ابن رشد .

تصويب الخطأ

المنحة السطر		الصواب	الخطأ
١٢	أ	المتنـج	الامتـذ
٦	ب	القضية	الفضية
٧	١١	الفلسية	البلسية
٣	١٢	كنت	كت
٤	١٢	كترا	كـ
٤	١٢	عنيا	عفا
١٣	١٢	مع	ـ
٥	١٣	الفائية	الفائية
١٠	١٤	النبى	البنى
٣	١٧	الكون موجود	الكونم وجد
١	٢٥	هــذـه	هــنـذـا
٦	٢٨	يردوها	يرددوها
١٠	٣١	ولسكتا	والسكتها
٩٤٨	٣٣	إنه واجب الوجود	ان واجب الوجود
٣	٣٩	حيز	مخير

المنحة السطر	المصواب	الخطأ
٤ ٥٠	موجودها	موجودها
٣ ٥١	اليه	اليه
١١ ٥٤	السماء	السماء
١٤ ٥٤	المخلوق	المخلوق
١٠ ٥٥	لا إله إلا هو فاني	فاني تؤفكون
٥ ٥٦	طوما	طوما
٨ ٥٩	وجعلنا	وتجعلنا
١٠ ٥٩	بمحفوظا	لمحفوظا
٦ ٦٢	الحيوان	الحيوان
١١ ٦٢	استقصاء	استقصاء
١٤ ٦٢	ثم	ثم
٣ ٦٣	اقتضت	اقتضت
١٣ ٧٥	مزيجا من حدس	مزيجا جلدس
٥ ٧٦	فالمحيوانات	فالمحيوانات
٢ ٧٧	فاسلكي	فاسلكي

المفحة السطر	المصواب	المخطأ
١٢ ٧٧	هو	هو
٥ ٨٩	اسمعت	اسمعت
٨ ٩٢	انقاضه	انقاضه
٢ ٩٣	دواليك	دويمك
١١ ٩٥	الافاق	الافق
١ ٩٦	شمسه	شمس
١٣ ٩٧	تقرب	تقرب
١٠ ١٠٠	توزيع	توزع
٦ ١٠١	جمع	مجمع
٧ ١٠١	الاهالك	المهالك
١٦ ١٠٢	هاين	هاتيق
١٣ ١٠٤	تم	تمام
٥ ١٢٠	فكر	مكر

رقم الإيداع ٣٩٩٣ / ٨١

هذا الكتاب

لافتى الكل بأحد عما وراء الكائن العام أو ما تسميه
الطبيعة عن قراء كتاب الكائن الأعلى مطلق الكمال والوجود
الذي يفتهم عن قراءة واستيعاب الأسفار والرسائل الكثيرة
التي يدور البحث فيها سواء عن طريق الفلسفة أو العلم أو الدين
حول هذا الموضوع الشائك سعياً وراء الوصول للحقيقة
الكبرى . وتورد على السائلين الذين قد يتعرضون على تسمية
هذا الكتاب بما ورد في كتاب الوجود العام العلامة الأبتاذ
محمود أبو الفتح النوفلي إذ يقول : « إن اجتماع الإرادة
والوعي والحياة والقدرة في الوجود أمور قلبيتنا بئناً صلبة
بصاحبه للبرهان - جرحها ثم صدورها من كائن -
ومبدع أول هو الله وهو الوجود الأزلي الذي
تتألف وأزلياً تلك الخصائص كلها أكثر منها بما
ولا يحصر »

دار نوران للطباعة والنشر

To: www.al-mostafa.com